مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٧)، العدد (٢)، ص ص ٨٠٧-٨٨٢، (ربيع ثاني ١٤٣٥هـ/ فبراير ٢٠١٤)

الحسبة في مكة المكرمة عصر سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م

د. محمد سالم بكر باعامر
أستاذ مشارك تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبد العزيز – جدة

ملخص البحث. تقوم الحسبة على أساس إسلامي ديني هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد استمدت أصولها من مصادر الشريعة الإسلامية والقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف وكتابات الفقهاء والمجتهدين.

والحقيقة أن المسلمين حرصوا على استلهام نصوص الشريعة وروح الإسلام مما اتخذوه من نظم إدارية ومعيشية ، كما أن أبرز الأسس الإسلامية عند المسلمين تقوم على أساس العدالة كما نص عليها الإسلام.

تهدف هذه الدراسة، بشكل مباشر، إلى الوقوف على جانب حضاري غاية في الأهمية من تاريخ مكة المكرمة، ممثلا في الحسبة، في عصر من أكثر العصور التاريخية العربية ازدهارًا، هو عصر سلاطين المماليك، والدراسة تلقي مزيدًا من الأضواء على ما طرأ على الحسبة من تطورات، ودورها في كثير من مجالات الحياة اليومية، فضلاً عن أن القائم بها صاحب الحسبة، أو متولي الحسبة، أو محتسب مكة المكرمة، أو ناظر الحسبة الشريفة، وسنتناول في هذه الدراسة: تعريف الحسبة، وتعيين المحتسب، ووالي الحسبة وصفاته، ونائب المحتسب، وأعوان المحتسب، ومجلس الحسبة أو دكة المحتسب، وأدوات المحتسب، وراتب المحتسب، واختصاصات محتسب مكة، والسلطات التنفيذية، والمعاملات اليومية، والإحصاء السكاني، ورفع الطرحاء، والعناية بموارد المياه، وتنقية بئر زمزم، والعناية بالطرق والنظافة، ومحاربة التشييع، ومحاربة الأمراض الاجتماعية، وإحرام الكعبة والعناية بها، والتغلغل في المجتمع المكي، ومعاقبة المحتسب إن أخطأ، ثم الهوامش والتعليقات، وقائمة المصادر والمراجع ، وأخيرًا مستلخص باللغة الإنجليزية.

المقدمة

الحضارة الإسلامية، على مر عصورها التاريخية بوجه عام، وعلى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م) بوجه خاص، حافلة بكثير من الأمثلة الدالة على مدى ما وصل إليه أبناء هذه الحضارة من رقي وتقدم وازدهار في كل مجالات الحياة المختلفة في أنحاء العالم العربي الإسلامي عامة، وفي مكة المكرمة خاصة. والدارس للتراث العربي الإسلامي تستوقفه كثير من الحقائق الدالة على هذا . والأمم المتقدمة حقا هي أكثر الأمم محافظة على تراثها الإنساني بوجه عام، والتاريخي بوجه خاص . ذلك أن تراث أي أمة هو جزء أصيل من حياتها ، تتوارثه الأجيال المتعاقبة، شاهدا على ما وصلت إليه الأمة من تقدم حضاري، وعبرة تستمد منها الأجيال الجديدة عناصر الأصالة والانتماء.

عصر سلاطين المماليك يعد من العصور المثيرة في تاريخ المنطقة العربية بوجه عام ، وبلاد الحجاز، ومصر، والشام بوجه خاص؛ إذ هو يمثل منعطفا مهما في تاريخ الشرق الأدنى عامة ، والمنطقة العربية خاصة؛ حيث نجح سلاطين المماليك في استكمال المهمة التاريخية للدولة الأيوبية (٥٦٩-٦٤٨هـ / ١١٧٤-١٢٥٠م) والتي كان لها دور فاعل في مواجهة الخطر الصليبي على بلاد مصر والشام ، وحماية الأراضي الإسلامية من اعتداءاتهم المستمرة ، بل نجح الأيوبيون في الانتصار على الصليبين وغيرهم من القوى الأجنبية ، وبمقتل توران شاة بن الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وتولي شجرة الدر للحكم كان ذلك نهاية حكم الأيوبيين وبداية حكم دولة المماليك الذين حرصوا على الظهور دومًا بمظهر القوة المدافعة عن الإسلام والمسلمين، وحماية مقدساتهم، والتي تمكنت من القضاء على الكيان الصليبي (الإفرنجي) تحت سماء الشرق العربي الإسلامي ، وفوق أرضه سنة ٦٩٠هـ /١٢٩١م، كما أنها تمكنت من إيقاف الغزو المغولي، وتحويل المغول (التتار) بعد مدة وجيزة إلى الإسلام.

ووجه الأهمية في دولة سلاطين المماليك أن مركز الدراسات الإنسانية، بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، كان قد انتقل إلى هذه

الدولة في شتى أقطارها، في عاصمتها القاهرة في مصر، وفي دمشق والقدس وغيرها من بلاد الشام، ومكة المكرمة والمدينة المنورة في بلاد الحجاز . وفي العصر المملوكي بشقيه ، عصر المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ / ١٢٥٠- ١٣٨٢م) ، وعصر دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م)، شهدت المجتمعات في مصر ، ومجتمعات بلاد الشام والحجاز نوعًا من الرواج الاقتصادي الذي عم البلاد معظم ذلك العصر .

وعلى الرغم مما امتاز به هذا العصر من نهضة علمية متميزة بوفرة ما صنف فيه من كتب التاريخ والجغرافيا، والخطط، والتراجم، والموسوعات مما ييسر للباحث العكوف علي دراسته. غير أن هذه المؤلفات على وفرة مادتها وتنوعها، لم يتم تصنيفها في زمن واحد، حتى يستطيع الباحث المقارنة بين ما ورد فيها من نصوص، وروايات، كيما يصل إلى ما يريد من حقائق؛ فضلا عن اقتصارها على معالجة الأحداث الجارية من زاوية واحدة، وإغفال أشياء كثيرة يحتاج الباحث إلى استجلائها، ومنها موضوع الحسبة.

والحسبة في مفهومها العام، تطبيق للشرع الإسلامي في كل ما من شأنه سلامة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ونبل تصرفات المسلمين في المجالات الخاصة والعامة، ومراعاتها لقواعد الأخلاق والذوق، ونشر الوعي الاجتماعي، ومحاربة البدع والعادات الضارة، ومكافحة التلوث والمحافظة على البيئة، وأنها نظام إسلامي قديم قدم الإسلام، جوهرها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومدارها تحقيق نفع الإنسان، لأنه مخلوق كريم على الله عز وجل ، سخَّر له ما في السموات والأرض، وكرَّمه وحمله في البر والبحر، ورزقه من الطيبات، وفضله على كثير من مخلوقاته تفضيلا.

ولما كانت كتب الحسبة التي أُلفت في العصر المملوكي قليلة جدا وقد وضعت أساسا لتأصيل عمل المحتسب، أي لمساعدته في مراقبة تطبيق الشرائع والقوانين، ومنها كتاب ابن تيمية ، تقي الدين أحمد (ت ٧٢٨هـ/١٣٣٠م) وهو كتاب (الحسبة في الإسلام)، الذي وضعه لمساعدة المحتسب المعهود إليه في الدولة وأورد فيه الأحاديث النبوية الشريفة

للإشراف على الأسواق، والباعة في مجال الأطعمة والأشربة، وكتاب ابن الإخوة (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م)، وهو كتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة) وغير ذلك من كتب الحسبة المهمة، فهي إما سابقة على العصر الذي نحن بصدده مثل كتاب (النظر في الأحكام في جميع أحوال السوق) لمؤلفه يحيى بن عمر الأندلسي (ت ٢٨٩هـ/٩٠١م)، ومنها كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للماوردي (ت ٤٥٠هـ/١١٤٩م) وكذلك كتابه (الأحكام السلطانية)، وكتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للشيزري (ت٥٨٩هـ/١٤٩٣م)، وكتاب (آداب الحسبة) للسقطي من رجال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد.

ومما لا شك فيه أن وظيفة الحسبة، في العصر المملوكي في مكة المكرمة، قد تأثرت بالعوامل التي ميزت ذلك العصر، إذ كان يتم اختيار شاغلها ممثلا للسلطنة، وتعبيرا عن الواجهة الدينية لها، والممثلة في الحرص على الظهور بمظهر القوة المدافعة دومًا عن الإسلام والمسلمين، وحماية مقدساتهم.

ومهما قيل عن تزايد الاهتمام في السنوات الأخيرة بالتاريخ الاجتماعي، وما صحب ذلك من اهتمام بالغ، بل ومنقطع النظير في جميع الجوانب الحضارية، فإن تاريخ الحسبة في مكة المكرمة لا زال في بدايته على الرغم من أن مؤسسة الحسبة تكاد لا نجد لها نظيرا في الحضارات الأخرى، وأنها كانت تسهر عمليًا بأجهزتها وأعوانها على المراقبة الدورية على المؤسسات والمنشآت الإسلامية، وذلك للحفاظ عليها من الخلل المضر بالحياة في صوره المختلفة.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه من إلقاء بعض الأضواء الجديدة على هذه الوظيفة الدينية المهمة في حياة مجتمع مكة المكرمة، والله نعم المولى ونعم المعين ، وله الحمد أولا وأخيرًا، ومنه وبه التوفيق.

تعريف الحسبة

الحسبة ولاية دينية في أساسها ، مدنية اجتماعية في طبيعة اختصاصها. نشأت وتطورت حتى أخذت مكانتها نظامًا إداريًا مستقلا ضمن الأجهزة الإدارية للدولة الإسلامية . وعَرَّف اللغويون الحسبة بعدة تعريفات مختلفة منها: طلب الأجر والثواب عند الله ، مثل قولك: "فَعَلْتُه حِسبةً وأحتسب فيه احتسابًا"(١). ومنهم من قال: إن الحسبة تعني التدبير ، وهي مشتقة من الفعل احتسب ، وإن المحتسب اسم مشتق من الفعل احتسب. (٢)ومنهم من قال : "احتسب فلان على فلان ، أي أنكر عليه قبيح عمله". (٣) ومنهم من قال: "إنها تعنى الاحتجاج ، كأن يقال احتسب فلان على فلان، أي احتج عليه" . كما ذكر صاحب كتاب (أساس البلاغة) في تفسيره لفظ (حسب) عدة معان، منها : "حسب المال، ورفع العامل حسابه، ومن يقدر على عد الرمل وحسب الحصى وهو من دون الكتبة". "والحسبة والأجر على قدر المصيبة، وفلان لا حسب له ولا نسب وهو ما يحسبه ويعده من مفاخر آبائه . وألق هذا في الحسبة أي فيما حسبت، وهو حسيب نسيب وهم حسباء، وفلان لا يحتسب به أي لا يعتد به، واحتسب عليه المال، واحتسب عند الله خيرا إذا قدمه ومعناه قدمه فيما يدخر . واحتسب ولده إذا مات كبيرا ، واحْتَسبت بكذا : اكتفيت به . وفلان حسن الحسبة في الأمور أي عنده كفاءة وحسن تدبير، وفعل كذا حسبة أي احتسابا ، وله فيه حسبة وحسبًا"(٤).

---

(١) الزبيدي " محمد مرتضى (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) " شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، القاهرة، بولاق، دار الكتب العلمية، ١٢٥٨هـ، جـ١، ص٢١٢، ٢١٣ .

(٢) ابن منظور "جمال الدين محمد بن مكرم" (ت ٧١١هـ /١٣١١م) : قاموس لسان العرب، بيروت، دار لسان العرب، سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، جـ٢، ص٣١٤-٣١٧ .

(٣) ابن سيده "أبو الحسن على بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م) " : المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، القاهرة، بولاق، دار الكتب العلمية، ١٣٢١هـ، جـ٣، ص١٥١ .

(٤) الزمخشرى "جار الله أبو القاسم محمود (ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م) " : أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، جـ١، ص١٧٢.

والحقيقة فإن ما عرضه علينا اللغويون من صور للاشتقاق وتفسيره راجع بالدرجة الأولى إلى أن اللغة العربية من اللغات الحية التي تتحور فيها الألفاظ في معانيها لتأخذ مفاهيم جديدة، وهذا ما عرفته الأمة العربية في تطورها التاريخي والحضاري(٥). والحسبة في اللغة تعني الإشراف على المعاملات الاقتصادية وتوجيهها بما يتناسب مع التدبير السليم ، وأن من يقوم بالحسبة شخص يسمى المحتسب(٦).

أما الحسبة في الشرع فيقصد بها الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله، أي محاولة جعل الحياة السائرة موافقة لأحكام الشريعة الإسلامية(٧)وفي ذلك يقول العبدري إن معنى هذا أن يكون تصرف الإنسان كله لله تعالى لا لغيره "فإن تكلم تكلم لله، وإن سكت سكت لله، وإن نظر نظر لله، وإن غض طرفه غضه لله، وإن بطش بطش لله، إلى غير ذلك من حركاته وسكناته"(٨) .

وينبغي أن نشير إلى أن نظام الحسبة يختص بالتطبيق العملي للفتاوى والأحكام، وهو عمل إبداعي في مجال تنظيم الجماعات الإنسانية

---

(٥) منصور، أحمد صبحي : الحسبة دراسة أصولية تاريخية، القاهرة، سنة ١٩٩٥م، ص٧ ؛ السبت، خالد بن عثمان : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٢٨-٣٢ .

(٦) الماوردي : "الإمام على بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ /١٠٥٧م) " : الرتبة في طلب الحسبة، القاهرة، دار الرسالة، ٢٠٠٢م، ص٣٨ ؛ الدريويش، أحمد بن يوسف بن أحمد " : أحكام السوق في الإسلام، وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، الرياض، دار عالم الكتب، ١٩٨٩م، ص٤٠٤-٤٠٥ .

(٧) العريني، السيد الباز " : "الحسبة والمحتسبون في مصر"، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ٣ لسنة ١٩٥٠م، ص١٥٧ ؛ أبو زيد، سهام مصطفى ": الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٦م، ص٤١-٤٢ .

(٨) ابن الحاج : المدخل، مدخل إلى الشرع الشريف، القاهرة، مكتبة دار التراث، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م، جـ١، ص٢١ .

، وأنه حكم تكليفي ملزم، كما أنه يستمد مشروعيته من المصادر الإسلامية الرئيسة وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس[٩] .

ومن الواجب علينا أن نشير إلى أنه لم يحدث في تاريخ البشرية أن اهتم دين سماوي ، أو حتى نظام أو مبدأ أرضي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعله جزءا من تعاليمه الرئيسة كما اهتم الإسلام بذلك[١٠]، قال تعالى : چٹٹٹٹٹٹٹٹچ[١١] وإن الحسبة من حيث أعمالها ومظاهرها عرفت أول ما عرفت في الإسلام على عهد الرسول ρ[١٢] بعد هجرته إلى المدينة المنورة (يثرب) إذ كان هدفه وضع القواعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة الجديدة في المدينة المنورة ، وقصص احتسابه صلى الله عليه وسلم كثيرة منها كشفه للأطعمة بالأسواق ، وقوله لأحد الباعة كان طعامه مبتلاً : " أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غشنا فليس مني"[١٣] ، ثم تبعه من بعده الخلفاء الراشدون ، وكان أبرزهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – (١٣ – ٢٣هـ / ٦٣٤ – ٦٤٣م) الذي حذر التجار الذين يجلسون ويأكلون في طرقات السوق فقال لهم : " لا تقطعوا علينا سابلتنا"[١٤] إلا أن نشأتها كنظام إداري قد ظهر في العهد الأموي في عهد

---

(٩) القرضاوي، يوسف : رعاية البيئة في شريعة الإسلام، القاهرة، دار الشروق، سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٢٤٥، ٢٤٦ .

(١٠) القرضاوي، يوسف : رعاية البيئة في شريعة الإسلام، ص٢٤٥، ٢٤٦ .

(١١) سورة آل عمران آية ١١٠ .

(١٢) السمهودي "نور الدين على بن أحمد (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) " : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، جـ١، ص٥٤٠ .

(١٣)، ابن الحاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ /٨٧٤م)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، إحياء الكتب العربية، طبع ونشر دار الحديث، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ج١، ص ٦٩. .

(١٤) سعد، محمد الزهري (ت ٢٣٠هـ /٨٣٥م)، الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ج٥، ص ٤٤ .

الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م)[١٥] لمواجهة المشكلات الناجمة عن المعاملات والسوق والصناعات في الخلافة الأموية[١٦] ، وقد كانت مؤسسة الحسبة تسهر بأجهزتها وأعوانها على المراقبة الدورية الدائبة في مختلف المدن والقرى الإسلامية، ومراعاة أحوال المصانع والمتاجر والأسواق وحظائر الدواب ، ومزارع الخضراوات والفاكهة، تمنع كل ما من شأنه أن يضر أو يلحق الضرر بالحياة في أي صورة من صورها المختلفة[١٧].

تعيين محتسب مكة

عرفت مكة المكرمة في العصر المملوكي نظام الحسبة ووظيفة المحتسب ، فكانت تلك الوظيفة محصورة بين القضاة والعلماء، وكانت هناك ظاهرة ملحوظة ارتبطت بمنصب القضاء بمكة المكرمة، وكان المتبع لتولية تلك الوظائف هو نظام الوراثة في الأسرة الواحدة ، وكان السلطان المملوكي هو الذي يصدر أمر تعيين القضاء، ولكن منصب القضاء بمكة المكرمة كان لا يتعدى بعض البيوتات العريقة، إذ كان معظم القضاة من الطَّبريين[١٨] ، والظَّهريين [١٩]، والنُّويريين، [٢٠]،

(١٥) المقريزى "تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) " : إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، ١٣٥٣هـ/ ١٩٤٠م، ص٥٩ ؛ أبو زيد، سهام، الحسبة في مصر الإسلامية، ص٤٩.

(١٦) ابن بسام، محمد بن أحمد (ت ٥٨٩هـ /١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق حسام الدين السامرائي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٩م، المقدمة، ص ش .

(١٧) الماوردي : الرتبة في طلب الحسبة، ص٢٨ ؛ القرضاوي : رعاية البيئة، ص٢٤٦-٢٤٧ .

(١٨) تعد الاسرة الطبرية من أقدم الأسر التي وفدت إلى مكة المكرمة قبل العصر المملوكي، فجدهم رضي الدين أبو بكر الطبري (ت٦١٣هـ/١٢٩٤م) حضر من إقليم طبرستان (إقليم يقع في بلاد خراسان جنوب بحر قزوين)، واستقر في مكة وكان من سلالته محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري (ت٦٩٤هـ/ ١٢٤٩م) الذي بلغ شأنا عظيما في العلم . وفي العهد المملوكي تعززت مكانة الأسرة الطبرية وسار أبناؤها على نهج أبائهم في الحرص على تولي الوظائف الدينية فتولوا قضاء مكة المكرمة والخطابة بالمسجد الحرام والإمامة

فيه، ونظر المسجد الحرام، ودرّسوا بالمسجد الحرام في حلقات علمية، كما نالوا حسبة مكة المكرمة وجمع لعدد من أبنائها وظائف دينية وإدارية مختلفة لكفاءتهم وثقة سلاطين المماليك وأشراف مكة المكرمة بهم .

ياقوت الحموي، شهاب الدين عبدالله (ت ٦٢١هـ /١٢٣٤م) معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م، ج٤، ص ١٣ ؛ شماع، محمد عمر، القضاء والقضاة في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جدة، جامعة الملك عبد العزيز، قسم التاريخ، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م، ص ١٩٧؛ الغامدي، بدرية أحمد، الأسرة الطبرية قي مكة المكرمة في العهد المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جدة، جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

(١٩) أسرة مكية شهيرة، أطلق على أفرادها لقب المخزومي والقريني والملبي، قرشية ومخزومية الأصل، ويرجع ذلك لاتصال نسبهم بالوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القريني، ذاع صيتها في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ـ الخامس والسادس عشر الميلادي . وهي من أكبر الأسر المكية العلمية بمكة المكرمة وأطولها عمرا إذ استمرت قرابة ستة قرون، وتميزت باستحواذها على الوظائف الدينية بمكة المكرمة وخاصة القضاء الشافعي، وكانت علاقتها بالأشراف قوية وقدمتهم على جميع الأسر الأخرى . وأول من تولى قضاء مكة المكرمة من تلك الأسرة هو شهاب الدين أحمد الظهيري (ت ٧٩٢هـ – ١٣٨٩م) وجمال الدين بن ظهيرة (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٤م) .

ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ /١٤٠٤م)، تاريخ الدول والملوك، تحقيق قسطنين زريق، ج٩، بيروت، الجامعة الأمريكية، ١٩٣٦م، ص ٢٣٩ ؛ السخاوي: "نجم الدبن محمد بن عبدالرحمن(ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) "، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، بيروت، دار الحياة، د.ت، ج ٨، ص ٩٣– ٩٤ ؛ السلمي، محمد معاضة، الأسرة الظهيرية في مكة في العصر المملوكي ٦٤٨هـ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠م ـ ١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، جدة، جامعة الملك عبد العزيز، ٢٠٠٩م، ص ٦٩ .

(٢٠) يرجع نسب هذه الأسرة إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد توزعت أسرتهم في بقاع الأرض، وكان جد هذه الأسرة عبد الرحمن بن القاسم النويري (ت٦١٦هـ/١٢١٩م) قد انتقل من بلاد المغرب مع أبيه واستقر في قرية النويرية وهي قرية بناحية مصر في منطقة بهنسا جنوب القاهرة والتصق به وبأسرته مسمى القرية وتنقلت الأسرة بعد ذلك في بلاد الشام والحجاز .

وتعد الأسرة النويرية ثالث أسرة علمية في مكة المكرمة وكان لها شأن عظيم من الناحية العلمية والاجتماعية . وتولى الكثير منهم القضاء والتدريس والخطابة والإمامة وإدارة المدارس والأربطة بمكة وجدة والشام ومصر واليمن.

والفاسيين [٢١][٢٢]، وكانت وظيفة القضاء وراثية بينهم ، وقد شهد العصر المملوكي تنافساً بين تلك الأسر وخاصة بين بني ظهيرة والنُّويريين ، إلا أن هذا الوضع تغير في سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م في عصر دولة المماليك الجراكسة ، فقد أصبح يتولاها أمراء مماليك عسكريين يتم تعيينهم من سلاطين المماليك[٢٣].

ويذكر الرحالة ابن بطوطة أنه عندما زار مكة المكرمة سنة ٧٢٦هـ /١٣٢٥م "كان إمام الحنابلة القاضي محمد بن عثمان البغدادي الأصل، المكي المولد (ت ٧٣١هـ /١٣٣٠م)، وهو نائب القاضي نجم الدين والمحتسب بعد قتل تقي الدين المصري والناس يهابونه لسطوته ، وكان تقي الدين المصري محتسباً بمكة"[٢٤].

في سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م تولى القاضي محمد بن أحمد العقيلي النويري

الذهبي، أبو عبد الله محمد (ت٧٤٨هـ /١٣٤٧م)، تاريخ بلاد الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج٤، ص ٢٩٨ ؛ شماع، محمد عمر، القضاء والقضاة في الحجاز في العصر المملوكي، ص ٢٢٠.

(٢١) يرجع نسب هذه الأسرة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ت٥٨هـ/ ٦٧٧م) . قدمت من فاس بالمغرب، ولذلك سميت بهذا الاسم، وأول من هاجر إلى مكة المكرمة من هذه الأسرة جدهم محمد بن محمد الفاسي (ت٧١٩هـ/١٣١٩م)، واستقر بمكة سنة ٦٨٧هـ، وأنجبت تلك الأسرة الكثير من العلماء كعبد الرحمن الفاسي (ت٨٠٥هـ /١٤٠٢م) الذي درس، وأصبح شيخ المماليك، وتقي الدين محمد بن أحمد الفاسي (ت٨٣٢هـ /١٤٢٨م) والذي له مؤلفات كثيرة من أشهرها العقد الثمين . =

ابن فهد جار الله بن عبد العزيز (ت٩٥٤هـ / ١٤٥٧م) القول المؤتلف في نسبة الخمسة البيوت إلى الشرف، (د.ن)، محفوظ رقم ٢٥٧٩، مكة المكرمة، مكتبة الحرم، ورقة ٢٠.

(٢٢) عبدالمجيد، ليلى أمين، التنظيمات الإدارية والمالية في مكة المكرمة في العصر المملوكي٦٦٧-٩٢٣هـ /١٢٦٨م-١٥١٧م، مكة المكرمة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص١٩٢.

(٢٣) عبدالمجيد: ليلى، التنظيمات الإدارية، ص ٦٦٨.

(٢٤) "أبوعبدالله محمد (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) "، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار أو رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار الكتب العلمية، ص ١٧٠.

(ت ٧٨٦هـ /١٣٨٤م) بعد عزل القاضي تقي الدين محمد بن أحمد بن قاسم الحرازي (ت ٧٦٥هـ /١٣٦٢م) قضاء مكة وخطابتها وحسبتها ونظر الحرم (ناظر الحرم) [٢٥] ولم تجتمع هذه الوظائف لأحد قبله[٢٦]، وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر رجب سنة ٧٨٦هـ /١٣٨٤م تولى وظيفة القضاء والخطابة ونظر الحرم والحسبة شهاب الدين أحمد بن ظهيرة وعزل عن تلك الوظائف سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م بالقاضي أحمد النويري[٢٧]، وباشر ما فوض إليه من الحكم والخطابة ونظر الحرم حتى مات في ليلة الأربعاء تاسع عشر شهر رجب سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م بمكة المكرمة[٢٨]، وأنهى ولده القاضي عز الدين إلى السلطان الظاهر

---

(٢٥) تعد وظيفة ناظر الحرمين الشريفين من أقدم الوظائف في بيت المقدس، إذ وجدت منذ العصر الأيوبي، وكان يتولاها أمير كبير برتبة طبلخانة، وأحيانا يتولاها عالم جليل برتبة قاضي القضاة، أو ربما جمع النائب بين النظر والنيابة، ويسمى متولي هذه الوظيفة ناظر القدس والخليل، ومن مهامه النظر في كل ما يحتاج إليه الحرمين الشريفين بالقدس وحرم الخليل من إصلاح وترميم، وكذلك كان من اختصاصه الاشراف على موارد المياه وعمليات البناء وشراء الزيت اللازم للإضاءة والاحتفاظ بأموال الوقف الزائدة=

الزاملي، فايز إبراهيم، الأوقاف في فلسطين في عهد المماليك (٦٤٨-٩٢٢هـ) رسالة ماجستير منشورة، غزة، الجامعة الإسلامية، ٢٠١٠م، ص ٤٣.

(٢٦) ابن فهد : "النجم عمر (ت ٨٨٥هـ/١٤١٨م) "، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الأجزاء ١ و ٢ و٣، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الطبعة الثالثة، مكة المكرمة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ؛ ج٤، تحقيق عبدالكريم علي باز، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م، ج٣، ص ٢٩٦، ٣٤٥؛ ابن تغرى بردي: "أبوالمحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) "، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١هـ-١٩٧١م، ج ١١، ص ٣٠٣.

(٢٧) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج ٣، ص ٣٤٥، ٣٥٨، ٣٥٩.

(٢٨) الفاسي، "تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م) "، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد عبدالقارد أحمد عطا، الطبعة الأولى بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٧٩-٨٠ ؛ ابن فهد : النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٣٥٨، ٤٠٦.

برقوق (٧٩٢-٨٠١هـ /١٣٨٩-١٣٩٩م) وفاة والده، فولاه قضاء مكة وخطابتها وحسبتها ونظر المسجد الحرام والأوقاف والربط[٢٩]، وفي سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م عزل عن تلك الوظائف ، ثم أعيد إليها مرة ثانية في نفس السنة ، واستمر حتى عزل سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م[٣٠].

كان السلطان في مصر في بعض الأحيان ينيب عنه أمير الحاج[٣١] المصري في أمر عزل المحتسب وتولية من يصلح مكانه مثال ذلك ما حدث في سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م زمن حكم سلطنة الناصر فرج بن برقوق الأولى (٨٠١- ٨٠٨هـ/ ١٣٩٨ - ١٤٠٥م) حين تم عزل القاضي عزالدين النويري عن قضاء مكة وخطابتها وحسبتها ونظر المسجد الحرام ، وذكر أمير الحاج طولو الناصري أن السلطان بمصر فوض إليه عزله وتولية من يصلح مكانه ، فولى عوضاً عنه جمال الدين أبا حامد بن عبدالله بن ظهيرة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م[٣٢].

---

(٢٩) جمع رباط، وهو شبيه بالخانقاه، وكانت الربط مأوى، يلجأ إليه العلماء والرحالون، وطلاب العلم الذين ينتقلون في أرجاء العالم الإسلامي، ويتلقون تعليمهم على أيدي بعض المشايخ والعلماء . =

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر(ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠م، ص ٤٢٧.

(٣٠) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٤٢٣، ٤٣٧.

(٣١) أول من لقب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما حج بالمسلمين نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة من الهجرة، وكان يعهد به إلى أمراء البيت المالك إذا لم يقم الخليفة بهذا العمل وبعد سقوط الخلافة العباسية صار لأمراء المسلمين وملوكهم كسلاطين العثمانيين، وهو من الألقاب المحلية التي اختص بها موظفون من المماليك، وكانت مهمته الإشراف على قوافل الحجيج بدءًا من سفرهم وتأمين طريقهم وأرواحهم وأموالهم ويعمل على سلامتهمم حتى عودتهم إلى مصر . ويقوم بتوزيع الصدقات والهدايا التي ترسل سنويا إلى الحرمين الشريفين وسمي أيضا أمير الركب لأنه يقود ركب الحجيج .

نجم، زين العابدين شمس الدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، القاهرة، دار الكتاب الحديث، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٧٩.

(٣٢) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٤٣٧ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص ٩٤.

كما أنه من الملاحظ أن تلك الوظائف لم يستمر عليها من تولاها إلا مدة قصيرة ثم يتم عزله، فمن سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م حتى سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م تولى تلك الوظائف كل من جمال الدين أبي حامد بن ظهيرة ، وعزالدين النويري ، وأبي البركات بن ظهيرة[٣٣].

وتنبغي الإشارة إلى أنه ليس بالضرورة أن تجمع كل الوظائف لمن يتولى وظيفة المحتسب والخطابة ونظر الحرم فقد تنزع وظيفة الخطابة منه وتعطى لغيره. وفي سنة ٨١٩هـ / ١٤١٦م صرف القاضي عزالدين محمد بن أحمد عن الخطابة والحسبة بالقاضي أبي البركات محمد بن حسين بن ظهيرة، إلا أنه لم يتولَ هذا المنصب في تلك السنة نظراً لوفاته قبيل وصول تعيينه بيومين ، وكان القاضي عزالدين محمد بن أحمد مريضاً، وكان ينوب عنه أخوه أبو الفضل محمد بن أحمد النويري في الخطابة والحسبة ونظر الحرم ، واستمر على ذلك بعد موت أخيه عز الدين سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م ، ثم تم عزله عن تلك الوظائف سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م ، وعين القاضي أبو السعادات محمد، وفي ذي الحجة من السنة نفسها عزل أبو السعادات محمد ، وأعيد أبو الفضل محمد لوصول توقيع له بذلك مع الخطابة ونيابة ومباشرة تلك الوظائف واستمر مباشراً لتلك الوظائف حتى جمادى الآخرة سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م[٣٤] ، وباشرها معه في هذا التاريخ أبو السعادات لوصول توقيع يقتضي اشتراكهما في الوظائف الثلاث، وذلك بمرسوم من الملك المظفر أحمد بن المؤيد شيخ (٨٢٤-٨٢٤هـ / ١٤٢١-١٤٢١م)، وهذا يعني أنه كان بالإمكان تعيين قاضيين معاً في الوظائف السابقة[٣٥].

وفي آخر ذي القعدة من تلك السنة٨٢٤هـ / ١٤٢١م باشر أبو الفضل محمد بن أحمد النويري الخطابة ونظر الحرم والحسبة بمفرده

---

(٣٣) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٤٨، ٤٥٩، ٤٦٩، ٥٦٩

(٣٤) الفاسي، العقد الثمين، ج ٢، ص ٧٧ – ٨٠، ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٥٣٧، ٥٤٩.

(٣٥) الفاسي، العقد الثمين، ج ٢، ص ٨١ – ٨٢ ؛ ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٥٨٢.

وذلك لوصول توقيع إليه من السلطان ططر الظاهري الجركسي (٨٢٤هـ/١٤٢١م)، وهو الذي كان يدير دولة المظفر بن المؤيد شيخ ، وكانت وفاة أبي الفضل محمد بن أحمد النويري في ليلة الثلاثاء ثالث عشر ربيع الأول ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م[٣٦].

وجدير بالذكر أنه منذ عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي الذي حكم في المدة (٨١٥-٨٢٤هـ / ١٤١٢-١٤٢١م) أسند منصب الحسبة إلى أحد أمراء المماليك، وهو الذي عرف باسم (باش[٣٧] المماليك)أو (باش مكة) [٣٨] ، وإن كانت بعض المصادر الحجازية تؤكد على أن وجود مثل هذا الأمير المملوكي يرجع إلى فترة حكم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨- ٦٧٦هـ/١٢٦٠- ١٢٧٧م) عندما حج وطلب منه الشريف إدريس (٦٥٢-٦٦٩هـ / ١٢٥٤-١٢٧٠م) أن يؤمر عليه أميرًا من جهته نائباً بمكة يقوي به نفسه، ويرجع أمره إليه، ويكون الحل والعقد على يده فولى الأمير شمس الدين مروان نائب[٣٩] الأمير عزالدين أمير

(٣٦) الفاسي، العقد الثمين، ج ٢، ص ٨١ – ٨٢.

(٣٧) الجمع باشات، لفظ تركي له معان كثيرة منها رئيس، أول، أمر، مقدم، رأس، هامة، ذروة، قمة، أعلى، فكر، ذكاء . وهو يختلف عن لفظ باشا الفارسي الأصل، وترد كلمة (باش) في بداية الألفاظ المركبة مثل باشكاتب أي رئيس الكتاب، أما كلمة (باشي) فترد في نهايتها مثل حكيمباشي أو رئيس الحكماء.

نجم، زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص١٠٩.

(٣٨) القلقشندي : أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد، ١٣٣١هـ / ١٩٣١م، ج ١١، ص ٢٠٩ – ٢١٠.

(٣٩) تطلق خصوصا على من ينوب عن القاضي إذا غاب عن المملكة، وأيضًا هو من ينوب عن شخص آخر أعلى منه سواء في أعماله كلها أو في عمل من أعماله، فربما أطلق على نائب الوالي، ونائب الرئيس، ونائب أستادار، ونائب أمير المسلمين في بلاد الأندلس وفي بلاد المغرب في عصر المرابطين، ونائب السلطنة ونائب القلعة ونائب القاضي وغيرها .

نجم، زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٥٢٤.

جِندار أو جاندار(٤٠)، وتجدد ذلك في عهد الناصر محمد بن قلاوون في حجته الثانية سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م فجرد من كان معه الأمير شمس الدين أقسنقر شاد العمائر(٤١)، ومعه مئة فارس(٤٢)، ومع صحة ما ورد في تلك المصادر إلا أنه لم يرد فيها ذكر لتوليه الحسبة.

ممن تولى الحسبة القاضي محمد بن أحمد بن الضياء ، ولد في الخامس عشر من محرم سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م ، وناب في القضاء بمكة المكرمة عن والده، فلما توفي والده في سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١م استقل بالوظيفة، ثم جمع له في سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م مع القضاء نظر الحرم والحسبة بمكة عن أبي الفضل النويري، ثم عزل عن ذلك عدا وظيفة القضاء في سنة ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م ، واستمر قاضياً إلى أن مات في السابع عشر من ذي القعدة سنة ٨٥٤هـ /١٤٥٠م(٤٣)، وفي سنة ٨٣٠هـ /

---

(٤٠) لقب للذي يستأذن على الأمراء وغيرهم في أيام المواكب عند الجلوس بدار العدل، ويتألف اللفظ من : أمير : وهو لفظ عربي، وجان : لفظ فارسي بمعنى الروح، ودار : لفظ فارسي بمعنى الممسك، ويعني اللفظ الأمير الممسك للروح أي الحافظ للسلطان فلا يأذن بالدخول عليه إلا لمن يثق به.

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ٢٠.

(٤١) يكون صاحب هذه الوظيفة "متكلما في العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار.

القلقشندي، صبح الأعشى ج٤، ص ٢٢ ؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٦م، ص ٤٤٩.

(٤٢) الفاسي، العقد الثمين، ج ٦، ص ٩٦ ؛ ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٩٨، ١٦٢، ١٦٦ ؛ ابن فهد: العز عبدالعزيز بن عمر "ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ٣ أجزاء، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ / ١٩١٨م، ج ٢، ص١١٥.

(٤٣) ابن فهد : "النجم عمر (ت ٨٨٥هـ/١٤١٨م) "، الدر الكمين لذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، الطبعة الثانية، مكة المكرمة، مكتبة الأسدي، ١٤٢٥هـ، ج ١، ص ٥٤ – ٥٨ ؛ ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٦٠٩.

١٤٢٦م تولى قاضي قضاة مكة المكرمة وعالمها محمد بن أبي البركات بن ظهيرة، الحسبة مع قضاء الشافعية بمكة، ونظر المسجد الحرام وكذلك تولى تلك الوظائف سنة ٨٤٢هـ /١٤٣٨هـ، وتوفي في تاسع صفر سنة ٨٦١هـ / ١٤٥٦م [٤٤] ظل منصب الحسبة يتولاه قضاة مكة المكرمة حتى سنة ٨٤٨هـ /١٤٤٤م حين أصبحت ولاية الحسبة يتولاها أمراء مماليك بدلاً من القضاة والعلماء الذين اعتادوا تولية هذه الوظيفة، ويبدو أن سلاطين المماليك رأوا ضرورة سيطرتهم على إمارة مكة المكرمة دينياً وسياسياً وأن ذلك لا يتم إلا إذا تولى أمير من قبلهم هذا المنصب المهم.

في سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م عزل القاضي محمد بن عز الدين النويري، وولي بدلاً عنه الأمير عبالرحمن بن غانم (ت ٨٦٢هـ / ١٤٥٧م) واليًا لمكة ومحتسبًا لها[٤٥]، وفي سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م عين السلطان الظاهر جقمق(٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م) الأمير بُرد بك التاجي الأشرفي برسباي (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) نظر الحرم، والحسبة، والربط، والأوقاف، والصدقات، كذلك تم تعيينه سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م مشداً بجدة مع ما بيده من النظر والحسبة وإمرة الترك المقيمين آنذاك بمكة[٤٦] ويعد الأمير بُرْد بك أول أمير مملوكي يجمع بين تلك المناصب المهمة ، ولكن على الرغم من ذلك لم يستمر بُرد بك في وظائفه سوى أربعة أشهر ، فقد تم عزله في شعبان سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، وعين عوضًا عنه طُوغان شيخ الأحمدي(ت ٨٨١هـ /١٤٧٦م) ناظراً للحرم ومحتسباً بمكة دون أن يكون أميراً للترك المقيمين بمكة، إذ ولي الوظيفة

---

(٤٤) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٦٣٨، ج٤، ص ١٢٩ ؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ١٨٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج ٩، ص ٢١٤ -٢١٦.

(٤٥) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٢٣٥ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج ٤، ص ١٤٣.

(٤٦) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٢٩٧، ٣٩٥ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٦؛ ابن تغرى بردي : " أبوالمحاسن جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٦م"، منتخبات من حوادث الدهور= في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، جزآن، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب، ١٤١٠هـ /١٩٩٠م، ج٢، ص ٤٤٦.

الأمير يُشبك بن جاني بك المؤيدي شيخ (ت ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م) [٤٧]، وفي سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٤م استقل طوغان شيخ بحسبة مكة وإمرة الترك دون نظر الحرم إذ رسم باستمرار برهان الدين إبراهيم بن ظهيرة بولاية نظر المسجد الحرام عوضاً عن طوغان شيخ[٤٨].

وظلت حسبة مكة يتولاها أمراء مماليك حتى سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م حيث أسندت الحسبة إلى والي مكة شاهين الجمالي ، وهو أحد مماليك الشريف محمد بن بركات[٤٩] وفي السادس عشر من ذي القعدة سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م وصل الأمير مغلباي الأشرفي باشاً للترك الراكزين بمكة المكرمة عوضا عن الأمير طوغان شيخ الأحمدي وأن يكون طوغان شيخ باش على الترك المتوجهين إلى المدينة ومحتسباً بمكة عوضاً عن السيد الشريف محمد بن بركات[٥٠]، وهذا التطور الجديد يؤكد على أن الشريف محمد بن بركات كان متولياً لحسبة مكة وأن مملوكه شاهين الجمالي كان ينوب عنه في هذا المنصب بتكليف منه إذ وصل في ١٩ ذي القعدة من سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٧م، مرسوم السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ /١٤٦٨- ١٤٩٦م) بأن تكون الحسبة لشريف مكة المكرمة ، وكانت قد خرجت من يده سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٦م ولما بلغ السلطان الأشرف قايتباي عدم رغبته تولي حسبة مكة المكرمة أرسل إليه مرسوماً فيه " أن كاتب الإنشاء[٥١] أنهى إلينا أنه ليس لكم رغبة في

---

(٤٧) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٣٣١ ؛ ابن تغرى بردي، منتخبات حوادث الدهور، ج ٢، ص ٢٧٢ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٧٠.

(٤٨) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٣٥٠ ؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٩٣.

(٤٩) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٤٨٠ – ٤٨٢.

(٥٠) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٤٨٥.

(٥١) هو أهم الأعمال الديوانية، وكان الديوان القائم به منذ عصر الأيوبيين إلى العصر المملوكي يسمى "ديوان الإنشاء " وكان مقره بالقلعة، ويختص هذا الديوان بالنظر في المظالم والقيام بأعمال الكتابة للملوك شرقا

حسبة مكة المكرمة ، فرسمنا بأنه لا تكون إلا تحت يدكم لشمول النفع للحاضر والعام"[٥٢].

يبدو أن هذا التطور في إسناد وظيفة الحسبة إلى شريف مكة المكرمة ، وحجبها عن المماليك قد جاء من باب إضفاء أهمية على شريف مكة المكرمة تحقيقاً لمصالح الدولة المملوكية، وظلت حسبة مكة المكرمة تسند إلى شريف مكة المكرمة حتى سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م عندما وصل مرسوم من مصر لباش الترك مغلباي الأشرفي بأن تضاف إليه الحسبة أيضًا[٥٣]، واستمر على مباشرة ذلك أربع سنوات حتى تم عزله سنة ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م، وتعيين الأمير قاني باي اليوسفي متولياً باش الترك، وحسبة مكة المكرمة بدلاً عن مغلباي الأشرفي، واستمر الأمير قاني باي حتى سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م متوليًا تلك الوظائف، وأسندت حسبة مكة من بعده إلى سنقر الجمالي ناظر الخاص [٥٤]، وظلت عملية الجمع بين إمرة الترك وحسبة مكة بين مد وجزر فتارة يشغلها شخص واحد وتارة تفصل ، وذكر أحد المصادر ما يؤكد جمع باش مكة بين الباشية والحسبة طوال العقود الثلاثة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك ، ونذكر من ذلك أنه في سنة ٩١٥هـ / ١٤٩٩م وفي يوم الثلاثاء السادس عشر من المحرم اجتمع الشريف بركات، وقاضي القضاة[٥٥]

وغربا لذا لزم أن يكون كتابه على إلمام باللغات الأجنبية مثل لغة الفرنجة بالإضافة إلى اللغة التركية فضلا عن أعمال التقاليد والتفاويض وما ينشأ من الأمور المهمة من المبيعات والعقود ومنشورات الإقطاع .

دهمان : محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٢٥٤.

(٥٢) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٤٩٤، ٥٠٦.

(٥٣) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٥٣٧ ؛ عبدالمجيد، ليلى، التنظيمات الإدارية، ص ٩٧١.

(٥٤) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٦٣٨ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٧٣.

(٥٥) وتعني رئيس القضاة وكبيرهم وكان مقره عاصمة الخلافة العباسية ووجدت هذه الوظيفة في عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥-٣٨٦هـ /٩٧٥ – ٩٩٦م) ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر وكان مقره القاهرة وكان يعينه الخليفة وكان قبل الفاطميين تابعا لبغداد . وكان قاضي القضاة يعين من قبل السلطان في عهد الأيوبيين وعهد المماليك وكان قاضي القضاة ينظر في قضايا متنوعة كالجنائية والمدنية والشرعية .

الشافعي، والباش قانصوه الجوشن، وهو المحتسب، والأتراك وغيرهم عند باب السلام[٥٦] بدكة الشرابية، وقرأوا مرسوماً للباش بالباشية والحسبة، وأُلبس الشريف خلعة، وكذا القاضي والمحتسب[٥٧].

في شهر ذي القعدة سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م كان المحتسب في مكة هو بُردي كسباي، وفي سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م خلع السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م) على بُردي كسباي وقرره باش المجاورين بمكة عوضاً عن جاني بك قرا ، وخلع على شخص من أمراء العشرات[٥٨] الرؤوس النوب يقال له فراكز الجكم وقرره في نظر الحسبة في مكة ، وكانت الحسبة مضافة إلى باشية مكة ففصلها السلطان قانصوه الغوري منها، وعين بها فراكز (قراقوز) [٥٩].

وربما كان فراكز (قراقوز) آخر من تولى هذه الوظيفة من الأمراء المماليك إذ بعدها استولى العثمانيون على مقاليد الأمور سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م[٦٠]، وهذا يفيد أنه منذ أسندت هذه الوظيفة إلى باشا مكة أو

نجم : زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٤١٤.

(٥٦) هو الباب الثاني في قصر (طوب قابي) اشتهر باسم (أورطة قابي) بمعنى الباب الأوسط، وهو الآن باب الدخول إلى متحف (طوب قابي) وهو بابان متداخلان .

نجم : زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص١٠٢.

(٥٧) ابن فهد : العز عبدالعزيز بن النجم "ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م"، بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق صلاح الدين بن خليل إبراهيم، وعبدالرحمن بن حسين أبوالخيور، وعليان بن عبدالعالي المحلبدي، ٤ أجزاء، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م ج ٢، ص ١١٢٩ ابن فهد : العز عبدالعزيز، غاية المرام، ج ٣، ص ٩٧.

(٥٨) مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك، ويكون صغار الولاة من طبقة أمراء العشرات .

عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٤١٥.

(٥٩) ابن إياس، "أبوالبركات محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م"، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ٥ أجزاء، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م، ج ٤، ص ٤٥٤ – ٤٥٥ ؛ ابن فهد : العز عبدالعزيز، غاية المرام، ج ٣، ص ٣٣٢ – ٣٣٣.

(٦٠) ابن فهد : العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، ج ٣، ص ٢٠٢٤ – ٢٠٢٥، ٢٠٣٠.

الأمير فراكز في مكة وحتى نهاية العصر المملوكي قد حصل تطور في شخصية من يتولى الحسبة فبعد أن كان يتولاها أحد أرباب القلم[٦١] من رجال الدين تولاها بعض أرباب السيف[٦٢] من أمراء المماليك ، وفي بعض الأحيان كان يتولاها شريف مكة أو أحد مماليكه[٦٣].

لم تشر المصادر المعاصرة من قريب أو بعيد إلى الشروط التي كانت تشترط في هؤلاء المعينين ولكن من الملاحظ أن من تولاها من أرباب القلم، وخاصة من القضاة، كان يجمع بينها وبين كثير من الوظائف الأخرى مثل القضاء والخطابة ونظر الحرم المكي الشريف والتدريس والنظر على الوقف وقد يتسع نطاق الوظائف التي يتولونها فتشمل الأوقاف والربط ونظر المطاهر[٦٤]، وكان كل قاضٍ يحرص على الجمع بين أكبر عدد من تلك الوظائف والمنافسة عليها. ويبدو أن سلاطين المماليك قد اتبعوا هذه النظم لأن القضاة كانوا فئة العلماء القادرة على القيام بهذه المسؤوليات الملقاة على عاتقهم، وفي الوقت نفسه ترحيب القضاة بذلك.

كان محتسب مكة يعين بمرسوم سلطاني، سواء كان من قضاة مكة المكرمة أو شريف مكة المكرمة، أو من أمراء المماليك القادمين من

---

(٦١) هم الكتاب وسموا بذلك لأنهم يعملون بأقلامهم ومنهم كتاب ديوان الإنشاء وكتاب السر، كتاب الدست، وكانوا يتولون الوزارة.

نجم، زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٢٥.

(٦٢) هم العسكريون وأغلبهم الأمراء وسموا بذلك لتربيتهم تربية عسكرية على القتال وفنون الحرب والجهاد ومنهم أمراء المئين وأمراء الألوف والأمراء المقدمون والأتابك وأمير الجيوش وأمير الأمراء، ومنهم من تولى الوزارة والحجابة وولاية المظالم والنيابة وغير ذلك .

نجم، زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٢٦.

(٦٣) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٣٤٥، ٣٥٨.

(٦٤) مفرده المِطْهَرةُ: الإداوةُ، على التشبيه بذلك، والجمع المِطَاهِرُ؛ وكلُّ إناء يُتَطَهَّر منه مثل سَطْل أَو رَكْوة، فهو مِطْهَرةٌ. والمِطْهَرَةُ: البيت الذي يُتَطَهَّر فيه.

ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٤١٥.

مصر، ويرجع ذلك لأهمية هذه الوظائف والمهام والأعمال التي يقوم بها متوليها.

وعن مرسوم التعيين، ومكان ذلك ومن يحضره نضرب على ذلك مثالاً لما كان يجري ، ففي ثاني عشر من شوال من كل سنة كان غالباً ما يصل أمير الحاج المصري ، ويخرج أمير مكة ، وقاضي القضاة والمحتسب ، وباش مكة ، أو أمير المماليك الراكزة[٦٥] في مكة المكرمة - وقد يكون هو نفسه المحتسب - وأعيان البلد، وكبار موظفيه ، ويلتقون عند دكة الشرابية عند باب السلام ، وتتم قراءة مرسوم الحسبة، وما يكون معه من مراسيم أخرى، كما يلبس شريف مكة المكرمة الخلعة الواصلة إليه، وكذلك قاضي القضاة الشافعي، وبقية القضاة، والمحتسب ويتم كل ذلك في موكب مهيب[٦٦].

وقد ذكر القلقشندي ما يفهم منه أن السلطان المملوكي في القاهرة كان هو الذي يختار من يراه مناسباً لشغل منصب الحسبة في مكة وعادة ما يقوم أحد الكتاب في ديوان الإنشاء بالقاهرة بكتابة (توقيع لذلك المحتسب) وعادة ما يستهل بعبارة (الحمد لله) ثم عبارة (أما بعد) ثم يتم ذكر اسم الشخص ويتم تحديد مكان الوظيفة (اسم المدينة) ويتم التوقيع بعبارة (على عادة من تقدمه وعادته)[٦٧].

ويؤكد ذلك ما ذكره ابن فهد النجم عمر في حديثه عن حوادث سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م عهد حكم السلطان المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥ – ٨٢٤هـ / ١٤١٢-١٤٢١م) وفيها أنه في حادي عشر ذي القعدة "وصل القاضي أبو السعادات بن ظهيرة توقيع بنظر الحرم والحسبة ، مؤرخ بشوال ..."[٦٨]، وكان هذا التوقيع يعرف باسم (العهد والتشريف[٦٩])،

---

(٦٥) قائد قوة المماليك في مكة المكرمة .

الشريف، عدنان محمد الحارثي، مكة المكرمة، مجلة كلية الآثار، العدد ١٣، ١٤٢٨هـ.

(٦٦) ابن فهد : العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، ج ٢، ص ١١٢٩.

(٦٧) صبح الأعشى، ج ١١، ص ١١٩.

(٦٨) إتحاف الورى، ج٣، ص ٥٦٧ – ٥٦٨ .

وفي ربيع الآخر سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م وصل عهد تشريف لولاية القاضي جمال الدين بن ظهيرة لوظيفة القضاء والخطابة والحسبة والنظر وذلك في سلطنة الناصر فرج بن برقوق الثانية(٨٠٨-٨١٥هـ/١٤٠٥-١٤١٢م)[٧٠].

وهناك الكثير من المراسيم السلطانية التي كانت تبعث من سلاطين المماليك في مصر إلى شريف مكة المكرمة ، وغيره من المسؤولين وفي مقدمتهم المحتسب.

وخلعة المحتسب كانت تجدد مع ركب الحاج الجديد ما دام على وظيفته، وعند تعيينه وتجديد تعيينه وكان يتلقى بعض الهدايا من قضاة مكة المكرمة مثل: الأغنام، وعسل النحل ، وبعض الأطعمة الأخرى[٧١] ، وكان يخلع على المحتسب خلعة عند قراءة مرسومه، كما كانت تهدى إليه خلعة في مناسبات أخرى، مثل قدوم أحد الأمراء الكبار؛ وإن كانت المصادر التي بين أيدينا لم تحدد نوعية تلك الخلع، فمثلاً في سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٤م وصل جانبك جقمق (٨٦٧هـ /١٤٦٢م) شاد جدة إلى مكة المكرمة لابساً الخلعة ،وبصحبته الشريف بركات وقاضي مكة المكرمة ، وقاضي جدة، والأمير طوغان شيخ وكل منهم لابسٌ خلعته[٧٢].

وفي سنة ٨٩٠هـ /١٤٨٥م خلع أمير الحاج برسباي الظاهري على الشريف محمد بن بركات وولده وعساكرهما، وعلى باش المماليك السلطانية بمكة، والأمير المحتسب سنقر الجمالي، وفي السنة نفسها دخل

---

(٦٩) الخلعة أو الملابس المهداة من السلطان إلى كبار الأمراء في مناسبات خاصة أهمها التعيين في الوظائف الكبرى كالنيابات .

عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٤٢٣.

(٧٠) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٣، ص ٤٤٨.

(٧١) ابن فهد : العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، ج ٢، ص ١٠٤٢، ج ٣، ص ١٨٦٠.

(٧٢) ابن فهد: النجم عمر، إتحاف الورى، ج٤، ص ٣٤٥.

أمير المحمل أحد مقدمي الألوف[٧٣] إزدمر المسرطن محمود شاه الظاهري، وخلع على الشريف محمد بن بركات وولده والأمير الباش والمحتسب[٧٤].

وهناك الكثير من الأمثلة والروايات التي تذكر حرص سلاطين المماليك على منح تلك الخلع وغيرها لأصحاب الشأن في مكة المكرمة.

والي الحسبة في مكة المكرمة واجباته وصفاته

ولاية الحسبة تعد من أشمل الولايات ، إذ أنها تشمل أمر الناس بالطاعات، وحثهم عليها ، ونهيهم المعاصي والمنكرات، وتحذيرهم منها، كما تشمل جوانب أخرى متعددة: كمراقبة الأسواق، والسلع ومدى صلاحيتها، وكذا متابعة الغش الذي يقع، واختبار جودة[٧٥] البضائع الموجودة في الأسواق، كما تشمل مراقبة الطرق وتصريفها، ومنع من ضَيَّق شيئا، وملاحظة الصناع ومدى إتقانهم لصناعاتهم، وتتبع الدور الآيلة للسقوط والأمر بهدمها، كما كان لمن يتولاها صلاحيات غير ذلك كثيرة سنشير إلى أهمها فيما بعد[٧٦] .

والمحتسب موظف إداري، عرف في بعض البلدان الإسلامية بصاحب السوق ، ووالي السوق، وصاحب الحسبة والمحتسب ، وفي مكة

---

(٧٣) وظيفتهم تسمى تقدمة أو تقادم ألف أو ألوف أي تحت قيادتهم ألف من أمراء المئتين . مفردها أمير مئتين . أو ألوف من الجنود كما يسمون بذلك لان الواحد منهم يملك مائة مملوك أو أكثر خاصة به ولهم رئيس يسمى : رأس مقدمي الألوف.

نجم، زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٥٠٥.

(٧٤) ابن فهد : العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، ج ١، ص ٤١٣ – ٤١٤.

(٧٥) سلامة التكوين وإتقان الصنعة .

العابد، أحمد و آخرون، المعجم العربي الأساسي للناطقين باللغة العربية ومتعلميها، لاروس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٨، ص ٢٧٧.

(٧٦) السقطي : آداب الحسبة، ص١-٢ ؛ السبت : خالد بن عثمان، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أصوله وضوابطه وآدابه، ص٣٣-٣٤ .

المكرمة باسم المحتسب أو صاحب الحسبة الشريفة، وناظر الحسبة الشريفة وباش المماليك السلطانية فيها، وهو موظف كان يعينه السلطان المملوكي أو من يفوضه بذلك؛ للنظر في شؤون الرعية، يأمرهم بما يوافق الشرع، وينهاهم عما يخالفه في أعمالهم الدينية والدنيوية مما ليس من اختصاص القضاة والولاة، ومن يقومون بتحصيل الخراج أو الزكاة أو الضرائب، ولأن عمله في نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كان له النظر في كل ما يهم المسلمين في أسواقهم ومجتمعاتهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض(٧٧) .

وكان من يختار لمنصب الحسبة لابد من أن تتوافر فيه عدة صفات ، كأن يكون شخصا ناهضا ، لا يتهاون في تطبيق عقوبة ضد المتلاعبين في البضائع أو أسعارها ، لأنه لو تكاسل في ذلك فقد أضاع صفتين من الصفات التي ينبغي أن يتصف بها، وهما: الإخلاص والأمانة ، وأن عدم نهضته فيها ضياع لحقوق كثيرين من الناس(٧٨). ويذكر ابن عبدون الفقيه المغربي : "يجب أن يكون المحتسب رجلا عفيفًا، خيرًا، ورعًا، عالمًا وغنيًا ، نبيلاً ، عارفًا بالأمور ، محنكًا ، فطنًا ، لا يميل ولا يرتشى فتسقط هيبته ويستخف به ولا يعبأ به ويتوبخ معه المقدم له ، ولا يستعمل في ذلك خساس الناس ، ولا من يريد أن يأكل أموال الناس بالباطل والمهونة ، لأنه لا يهاب إلا من كان له مال وحسب" (٧٩) ويذكر ابن الصيرفى أن من أهم ما يجب أن يتحلى به المحتسب من صفات: أن يكون عالما ، عفيفا في مباشرة وظيفته، جميل الهيئة والهيبة، له مال

(٧٧) ابن فهد العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٣، ص ١٧٧٧ ؛ أبو زيد، سهام، الحسبة في مصر، ص١٠٤-١٠٥ ؛ أمين، هدى عبد الغفور، الحسبة في الإسلام في القرن ٦-١٠هـ/١٢-١٦م، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، القاهرة، جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإنسانية، ص١٠٨ .

(٧٨) المقريزى : السلوك، جـ٤، ص٢٦٥ .

(٧٩) (٧٩) ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، القاهرة، نشر ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥م، ص٢٠ .

وثروة وحشمة وافرة ونعمة ظاهرة[٨٠]. إلا أن القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي كان قد شهد تطورا غريبا في هذه الصفات، وليس أدل على ذلك مما يذكره ابن الصيرفي في وفيات ٨١٩هـ/١٤١٦م في حديثة عن واحد من محتسبي مكة ويدعى أبا البركات محمد بن ظهيرة (ت٨١٩هـ /١٤١٦م) من أنه كان مشتغلا بالتجارة، مشهورا بسوء المعاملة ، ولي حسبة مكة ونيابة الحكم عن قريبه الشيخ جمال الدين بن ظهيرة ، فعيب على جمال الدين توليته ، وأنكر عليه أهل الدولة، فعزله، فسعى هو في عزل جمال الدين ، فبذل مالا في أوائل دولة المؤيد شيخ المحمودي ، فلم يتم له ذلك حتى مات جمال الدين، فتعصب له بعض أهل الدولة المؤيدية. تولى دون السنة ، ثم وليه مرة أخرى في تلك السنة دون الشهرين، ومات معزولا في الثالث والعشرين من ذي الحجة ... [٨١] وما يرويه ابن فهد العز عبدالعزيز عن حوادث شهر ربيع الآخر سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م في عهد السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٦م) : "وفي ثالث عشر الشهر ولي علي بن قرقماس بن حليمة العجلاني المكي الأصل ولي بمكة الحسبة ، وزف على فرس من بيت الشريف إلى بيته بالمعلاة ، وأمامه أهل مكة ، والمغاني ، والطبل ، والزمر ، والجعيدية[٨٢]."[٨٣] فأين هي صفات الورع وجمال الهيئة والهيبة والخشية سابقة الذكر ، وكذلك حسن المعاملة .

يشترط بعض فقهاء الحسبة أن يتصف المحتسب بعدة صفات أخري مُعِينة له على أداء وظيفته كأن : يكون عارفا بأصناف المعايش

---

(٨٠) ابن الصيرفي : علي بن داود (ت٩٠٠) نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسين حبشي، القاهرة، دار الكتب العربية، ١٣٩١مهـ / ١٩٧١م، جـ٤، ص١٣١ .

(٨١) نزهة النفوس والأبدان، جـ٢، ص٣٧٧، برقم ٥٥١ .

(٨٢) الجعيدية : أهم الفتوات، ويطلق عليهم الزعر والعياق والشطار .

نجم، زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، القاهرة، ص١٨٣.

(٨٣) ابن فهد العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٣٩١ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٥، ص٢٧٥، ترجمة ٩٣٥ .

وحيل الباعة ، إذ بذلك يتوصل إلى معرفة الغش والتدليس ، ويميز بين التحقيق والتلبيس ، ولا توجد هذه الخصال إلا في الحازم الفطن اليقظان ، المتصف بالعفاف والثقة ومطالعة السلطان، ليتمكن من كل ما يريد إصلاحه أو تغييره ، وزجر من يريد تأديبه أو تعزيره ، ويأمن من الطعن والتغيير عليه من كل غبي جاهل ، أو ظنين متساهل(٨٤) .

ويذكر بعض المؤرخين أن من بين الصفات التي يجب أن يتصف بها المحتسب : "أن يكون ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين عارفًا بأحكام الشريعة ، ليعلم ما يأمر به وينهي عنه ، فإن الحُسن ما حسنه الشرع والقبح ما قبحه الشرع لقوله ρ "ما استحسنه المسلمون فهو حسن" ولا مدخل للعقول في معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ρ ، فرب جاهل يستحسن بعقله ما قبحه الشرع ويرتكب المحذور وهو غير ملم بالعلم به ، ولهذا المعنى كان طلب العلم فريضة على كل مسلم(٨٥) .

ويمكننا أن نضيف إلى الصفات السابقة التي يجب أن يتحلى بها محتسب مكة المكرمة صفة الإخلاص والمتابعة ، فأي عمل شرعي إذا فقد هاتين الصفتين فقد ركنين مهمين وعظيمين ، ذلك أن الإخلاص شرط في قبول سائر الأعمال الصالحة مصداقا لقوله عز وجل : چ□□ □□□ □□□□□□□□□□چ(٨٦) أما المتابعة فيجب على كل من يتولى منصب الحسبة أن يضع المتابعة نصب عينيه ، لأن الغرض من الاحتساب هو إيجاد المعروف وتعزيزه، وإزالة المنكر ومحاربته، وعليه أن يعلم أن

---

(٨٤) السقطي، آداب الحسبة، ص٥ ؛ ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، ص١٢٠ .

(٨٥) السقطي، آداب الحسبة، ص٦ ؛ ابن الإخوة محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت٧٢٩هـ / ١٣٢٩م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ص٥٢-٥٣ ؛ عبد الرحمن الفاسي : خطة الحسبة في النظر والتطبيق، الدار البيضاء، ١٩٨٤م، ص٤٨ .

(٨٦) سورة الكهف، الآية ١١٠ .

المتابعة شرط في قبول عمله، وأن العمل الصالح هو العمل الصائب الموافق لهديه جل وعلا، وهدي نبيهم(٨٧).

نائب المحتسب

كان لمحتسب مكة المكرمة نائب ينوب عنه في أداء مهام وظيفة الحسبة، إذ كان هذا النائب يقوم بالمهام التي يكلفه بها المحتسب في حالة غيابه عن مكة أو انصرافه لأداء بعض المهام التي تمنعه أو تعيقه عن القيام بالإشراف على أمور الحسبة بنفسه، فيسندها إلى نائبه(٨٨).

وردت إشارة عند ابن فهد العز عبدالعزيز تفيد أن السلطان كان يفوض أمير مكة المكرمة أحياناً في تولية المحتسب فعند ذكره لحوادث شهر ذي الحجة سنة ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م يقول : " ولي صاحب مكة الحسبة طوغان التركي "دوغان التركي" أحد مماليك أبيه وخلع عليه خلعة زف بها ثم استناب - أي المحتسب الجديد – مرشداً ، وخلع عليه خلعة وزفه إعلانا لتوليه هذا المنصب بما يفيد أن محتسب مكة يستنيب عنه من يراه صالحاً لشغل هذا المنصب"(٨٩) ، ليس هذا فحسب بل إن المحتسب كان يخلع على نائب الحسبة وفي موضع آخر يؤكد أن هذا الإجراء كان قد صار عرفا متبعاً، عندما ذكر أن المحتسب فراكز ألبس نائب المحتسب زين الدين المصري خلعة وزفه بها على فرس، فتكلم في السوق على أهل السوق، وعاير عليهم الموازين والمكاييل وجارى عليهم فتآذوا منه وصبروا حتى زاد طمعه وشكوه إلى المحتسب وقضاة مكة المكرمة وعند ذلك غيره المحتسب واتخذ لنفسه نائباً وألبسه خلعة، وزفه بمكة المكرمة(٩٠).

---

(٨٧) المجيلدي : أحمد بن معيد (ت١٠٩٤هـ) كتاب التيسير في أحكام التسعير، الجزائر، ١٩٧٠م، ص٤٣-٤٥ ؛ السبت، الأمر بالمعروف، ص١٧٠-١٧٢ .

(٨٨) عبدالمجيد، ليلى، التنظيمات الإدارية والمالية، ص ٦٧٢

(٨٩) بلوغ القرى، جـ٣، ص١١٣٠ ؛ غاية المرام، جـ٣، ص٩٨.

(٩٠) ابن فهد العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٣، ص٢٠٢٤-٢٠٢٥.

ممن تولى نيابة الحسبة

- محمد بن عبدالمؤمن بن خليفة الدوكالي (ت ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م) ، وهو من بلاد المغرب، وقد تردد بمكة المكرمة عدة مرات ، وكان ممن باشر الحسبة نيابة[٩١].

- حسين بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الحصن كيفائي المكي بدر الدين المعروف بالحصن ناب في الحسبة بمكة المكرمة عن القاضي محب الدين النويري وابنه القاضي عز الدين النويري ، وكان يؤذن في الحرم الشريف (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٨م) بمكة المكرمة ، ودفن بالمعلاة[٩٢].

- عبدالله بن علي الكازروني الأصل ، المكي المولد ، كان رئيس المؤذنين بمكة المكرمة ، وولي ذلك عدة سنوات وناب في الحسبة بمكة المكرمة عن جده قاضي مكة المكرمة أبوالفضل النويري ، وتوفي في مكة المكرمة سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م[٩٣] .

- محمد أبو عبدالله النويري ولد سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م ، ولي بمكة المكرمة وباشر إمامة المالكية وقضاءها مرتين، وناب في حسبتها ، (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) [٩٤].

- محمد الكمال أبو البركات الحنفي ولد في سنة٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م ، وناب في حسبة مكة المكرمة وكذا في القضاء بجدة عن ابن أخيه القاضي أبي اليمين (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) بمكة المكرمة[٩٥].

---

(٩١) الفاسي، العقد الثمين، ج ٢، ص ٢٥٥ – ٢٥٦.

(٩٢) الفاسي، العقد الثمين، ج ٣، ص ٤٢٩.

(٩٣) الفاسي، العقد الثمين، ج ٤، ص ٣٨٧.

(٩٤) ابن فهد: النجم عمر، الدر الكمين، ج١، ص ٢٠٣ – ٢٠٥ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ ٨، ص١٦٢ ؛ المقريزي، "تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م"، السلوك لمعرفة دول الملوك، الأجزاء ١ و ٢، تحقيق محمد مصطفي زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣١٨هـ/١٩٥٨م، ج ٣ و ٤، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، دار الكتب، ١٣٩٤هـ /١٩٧٣م، ج٣/٤، ص ١١٥١.

(٩٥) السخاوي، الضوء اللامع، جـ ٨، ص١٦٢-١٦٣.

- كمال الدين أبوالبركات النويري ناب في الحسبة بمكة عن قريبه ابن الفضل محب الدين النويري (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) [٩٦].

- أحمد بن يوسف الحسني ، ولد سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٢م بمكة المكرمة وناب فيها، ثم تركها، كان يؤذن في المسجد الحرام ، ووصف بشيخ المؤذنين بالمسجد الحرام (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بمكة ودفن بالمعلاة[٩٧].

- أحمد بن عبدالقوي بن محمد البجائي ، ولد سنة ٧٩٧هـ /١٤٩٤م بمكة المكرمة ، ونشأ بها وناب في حسبتها ، وتوفي في سنة ٨٦١هـ / ١٤٥٦م[٩٨].

أعوان المحتسب

نظرا لتضخم واجبات أو اختصاصات محتسب مكة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والصحية، فقد تحتم عليه أن يتخذ له عددا من المساعدين الذين تتوافر فيهم الخبرة في مختلف المجالات التي سيعملون بها ، سواء كانت هذه الأعمال من أعمال الضبطية أو الإشراف أو التفتيش ، أم كانت من أعمال تنفيذ الجزاءات التي يوقعها المحتسب ، وهم الذين عرفوا بأسماء عديدة مثل (الغلمان) ، و(الأعوان) [٩٩] و(العرفاء) [١٠٠] ، أو (الوكلاء) [١٠١] ، أو (أمناء الأسواق)، وفي مكة المكرمة

(٩٦) عبدالمجيد، ليلى، التنظيمات الإدارية و المالية، ص ٦٧٣.

(٩٧) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص١٦٢ ؛ ابن فهد، النجم عمر، إتحاف الورى، جـ٤، ص ٣٠٨.

(٩٨) ابن فهد، النجم عمر، إتحاف الورى، جـ٤، ص ٣٧٨ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ ١، ص٣٥٢ – ٣٥٣.

(٩٩) مفردها عون : وهي معين ومعاون مساعد.

العابد، أحمد و آخرون، المعجم العربي الأساسي للناطقين باللغة العربية ومتعلميها، ص ٨٧٩.

(١٠٠) مساعد المؤدب في الإشراف على الأيتام المسجلين بالمكتب، ويكون بالمكتب عادة عدة عرفاء يختص كل منهم بالإشراف على بضعة صبيان .

عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٩٣٩.

عرفوا باسم (صبيان المحتسب) [١٠٢] وتجب الإشارة إلى أن اختيار هؤلاء الصبيان كان يقوم به المحتسب بنفسه دون تدخل من أحد ، والدليل على ذلك ما ذكره الماوردي عندما قام بتوضيح الفارق بين المحتسب الذي يعينه السلطان والمحتسب المتطوع ، فقال عن الأول : " إن له أن يتخذ على الإنكار أعوانا ، لأنه عمل هو منصوب وإليه مندوب ، وليكن له أقهر وعليه أقدر، وليس للمتطوع أن يتخذ لذلك أعوانا"[١٠٣]. كذلك ذكر الشيزري صبيان المحتسب عندما قال : "ويتخذ المحتسب له سوطا ودرة وطرطورا وغلمانا وأعوانا فإن ذلك أرعب لقلوب السنة وأشد خوفا ؛ ويلازم الأسواق والدروب في أوقات الغفلة عنه ، ويتخذ له فيها عيونا يوصلون إليه الأخبار وأحوال السوقة"[١٠٤] أما السقطي فقد قال عنهم : "ويقدم من ثقات أهل الأسواق ووجوه أرباب الصنائع من تعرف ثقته ، وينفع المسلمين نصحه ومعرفته، يستظهر بهم على سائرهم ، ويطلعونه على خفي أسرارهم وخبيث سرائرهم ، حتى لا يختفي من أمورهم كثير ولا قليل ، ولا يستتر من شأنهم دقيق ولا جليل ، فيزول مكرهم ، ويرتفع على المسلمين غشهم وضرهم ويتفقد مع الأحيان أحوال رجاله ولا يعين أحدا منهم لشغل معين كوزن الخبز على الخبازين وغيره فإنه إن فعل ذلك تقدم إلى ذلك الرجل بالرشوة وذلك عليه في الوزن ، ولا يعلم رجاله أبدا خروجه لأمر معين من الحسبة فإنهم إن علموا ذلك تقدم واحد منهم أو قدموا غيرهم إلى أرباب ذلك الأمر الذى يخرج فيه، ويشعرهم بقصده فيغيب صاحب الدلسة وفاعل الريبة أو يغيب عين الشيء الفاسد فلا تمكن إقامة الحجة عليه" [١٠٥] .

---

(١٠١) القائم بما فوض اليه . من يعتمد عليه في تدبير أمر. هو الذي يتصرف لغيره لعجز موكله . من يفوض اليه أمر شخص قاصر (وكيل شرعي) .

نجم، زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٥٣٤.

(١٠٢) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص١١٢٢ ؛ أبو زيد، سهام، الحسبة في مصر، ص١٢٥ .

(١٠٣) الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٩.

(١٠٤) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٠، ١٥ .

(١٠٥) آداب الحسبة، ص٩.

أما السنامي ، ففي حديثه عن الفوارق بين المحتسب المنصوب والمتطوع يقول : "إذا عجز المتطوع عن الاحتساب فهو معذور وإذا عجز المنصوب فهو غير معذور لأنه يمكنه أن يستعين بأعوانه فإن لم يكفه أعوانه فبأعوان السلطان وأما المتطوع فيستعين بأهل الصلاح فإن لم يعنه أحد يعذر في ذلك يعني لا يكون آثما بتركه وأما ثواب الاحتساب فلا يناله إلا بفعله لأن الأجر جزاء العمل"(١٠٦).

ويروي ابن فهد العز عبدالعزيز أن محتسب مكة كان يستخدم صبيانه في الإمساك بمن يرتكب خطأ وإحضاره أي تنفيذ ما يأمرهم به من ضبط وإحضار. وفي موضع آخر يذكر أن المحتسب وهو الأمير جندر أمر صبيه بمد مديون، اشتكى عنده(١٠٧) .

وعن الشروط الواجب توفرها في هؤلاء الصبيان فإن الشيزري في حديثه عن المحتسب يقول : "ويُلزم المحتسب غلمانه وأعوانه بما التزمه من هذه الشروط – يقصد العفة عن أموال الناس ، والتورع عن قبول الهدايا من المتعيشين وأرباب الصناعات – فإن أكثر ما تتطرق التهمة إلى المحتسب من غلمانه وأعوانه، فإن علم أن أحدا منهم أخذ رشوة(١٠٨) أو قبل هدية صرفه عنه ، لتنتفي عنه الظنون ، وتنجلي عنه الشبهات"(١٠٩) .

في عصر سلاطين المماليك زاد ابن الإخوة في إيضاح دورهم والشروط الواجب توافرها فيهم فيقول: "وينبغي للمحتسب أن يتخذ رسلا وغلمانا وأعوانا بين يديه بقدر الحاجة دائما ، إن كان جالسا أو راكبا، فإن ذلك أعظم لحرمته، وأوفر لهيبته وإعانة للناس على طلب غرمائهم، وخلاص الحق منهم، ويشترط فيهم العفة، والصيانة، والشهامة، ويؤدبهم

---

(١٠٦) عمر بن محمد (ت٧٣٤هـ /١٣٣٣م) كتاب نصاب الاحتساب، تحقيق مؤئل يوسف عز الدين، القاهرة، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٢م، ص١١٠ .

(١٠٧) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص١١٠٥ ؛ جـ٣، ص١٥١٠.

(١٠٨) مال يعطى لإبطال حق أو لإحقاق باطل .

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٢٨٧ .

(١٠٩) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٠ .

ويهذبهم، ويعرفهم كيف يتصرفون بين يديه وكيف يخرجون في طلب الغرماء، وإنهم لا يعرفون الخصم الذي طلب ، لماذا طلب ؟ لئلا يتفكر في حجة يتخلص بها، فإذا طلب شخصا بعدته وآلته فليحضروه على هيئته التي وجدوه عليها ، ولا يمكنوه أن يترك شيئا من الأرطال في دكانه، ولا يودع منها شيئا في طريقه، فليحضروه على هيئته التي وجدوه عليها حتى يعاقبه المتولي على ما يراه منه ولا يخرج أحدا من الرسل في طلب أحد من الناس إلا بعد مشاورة المحتسب وإذا خرج فليخرج بعزم وقوة نفس حادة ويطلب الخصم بسرعة ، فإن كان ذلك مما يرعبه، ويخوفه، ويردعه، فإذا حضر بين يدي المحتسب ووجد لينا ورفقا فرغب في الحق وتعرف به بعدما كان قصده جحوده ، ويتوب عن الذنب بعدما كان مصرا عليه، وإذا أمرهم بتأخير أحد من الناس للتأديب أخره وسدد ولا يكشفوا رأسه حتى يأمرهم بذلك ، وإذا أمر بضربه ينظروا قصده هل بالسوط[١١٠] أو بالدرة[١١١] فإن لكل إنسان أدبه بما يناسبه ويناسب حاله وما يليق به ، وهذا كله راجع إلى ما يراه في التعزير من ضرب، وصفع، وحبس، ولوم، وتوبيخ" [١١٢] .

أما السلطات التي كان يمتع بها أولئك الصبيان، فيبدو أن تخويل هؤلاء سلطات كاملة وصلاحيات تامة قد أدى ببعضهم إلى الفساد وإلى سوء استغلال هذه السلطات . والدليل على هذا ما ورد عند بن فهد العز عبدالعزيز في حديثه عن سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩م أنه في ثاني يوم من شهر رمضان "مُسك صبيان المحتسب وصبيان الباش" وقد كانوا ثمانية تم نفيهم إلى جدة، ثم شفع فيهم[١١٣] . وما ردده الشيزري من أنه "ينبغي للمحتسب أن يكون ملازما للأسواق ، يركب في كل وقت ويدور على

---

(١١٠) وجمعها سوط : الذي يجلد به

ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٣١٥.

(١١١) بالكسرة : كثير اللبن وسيلانه . الدرُّ : العمل من خير أو شر، وقبل لله دره أي عطاؤه

ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٤١٠.

(١١٢) معالم القربة، ص٢٢٠-٢٢١ .

(١١٣) بلوغ القرى، ج٢، ص١١٢٢ .

السوقة والبياعين ، ويكشف الدكاكين والطرقات، ويتفقد الموازين والأرطال ويتفقد معايش التجار وأطعمتهم وما يغشونه ، ولابد له أن يفعل ذلك بالنهار والليل في أوقات مختلفة ، ويتفقدهم على غفلة منهم ... وإذا دار المحتسب فليكن معه أمين عارف ثقة يعتمد على قوله ومع ذلك فلا يعتمد في الكشف إلا على ما يظهر له ويباشره بنفسه .."(١١٤) كذلك يشير المجيلدى في حديثه عنهم، إلى أن المحتسب كان يأمرهم بضرب من يجدونه في حوانيتهم إذا شرع خطيب الجمعة في الخطبة، وأن يكون هذا الضرب وجيعا ، ويأمرون الناس بالتحفظ على الصلوات الخمس(١١٥) .

ولا يفوتنا أن نذكر أنه إلى جانب الاختصاصات التي كان يكلفهم بها المحتسب ويقومون بتنفيذها، فإنهم كانوا يبلغون أصحاب الحرف والصناعات المختلفة كل ما هو مطلوب منهم من واجبات والتزامات ، وربما كانوا يعفون من الضرائب أو من جزء منها مقابل ما كانوا يقومون به من خدمات، فضلا عن تقديم النصح والإرشاد للمحتسب بخصوص بعض المعاملات التجارية ، وإعطائه فكرة أو تقديم تقارير له عن أحوال الأسواق(١١٦).

أما مرتبات صبيان المحتسب في مكة المكرمة فلم يصادفنا شيء عنها ، ونحن نرجح أنه كانت تصرف لهم مرتبات من بيت المال كما كان يصرف للمحتسب ، وربما حصلوا على نصيب من الصدقات الكثيرة التي كانت تصل بين حين وآخر . وعلى نصيب من الخبز الذي كان يتم توزيعه من ريع الأوقاف هم والمحتسب ونائبه(١١٧) .

مجلس الحسبة أو دكة المحتسب

(١١٤) نهاية الرتبة، ص١٠، ٣٦ .

(١١٥) كتاب التيسير، ص٧٢ ..

(١١٦) المجيلدي، كتاب التيسير، ص٧٢ .

(١١٧) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٣١٢ .

مجلس الحسبة، أو دكة الحسبة، أو دكة المحتسب، قد أشار إليها ابن فهد العز عبدالعزيز في حديثه عن حوادث شهر رمضان سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩م فذكر بأن العامة في مكة المكرمة قد صاحوا على المحتسب، ثم على بعض الترك – يقصد المماليك – بسبب أعمال صبيان المحتسب، ورموا شبابيك بيته وبعض شبابيك جيرانه ، حتى تكسر بعضه ، "وحرقوا دكة المحتسب ، فتوصل بعض نسوانه إلى قاضي القضاة الشافعي ، ودخلوا عليه فأرسل بعض عبيده إلى بيت المحتسب ، وطردوا العوام"[١١٨] وفي موضع سابق في حديثه عن شهر جمادى الأولى سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م يحدد لنا موضع هذه الدكة فيقول : "وفي يوم الاثنين ، ثالث الشهر اجتمع الباش قانصوه المصارع (ت٦٨١هـ / ١٤٧٦م) والمماليك السلطانية بالدكة التي أمام بيت الباش بالمسجد الحرام، وطلبوا المحتسب سودون فلم يحضر .." والسبب في عدم حضوره أنه قد بلغه وصول مرسوم للباش بأنه قد تم عزله، وتولية أمير مملوكي آخر مكانه ويدعى جندر [١١٩]. وفي حديثه عن سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩م شهر المحرم منها يؤكد على أن دكة المحتسب هذه هي دكة الشرابية، عند باب السلام ، وأنها كانت تعقد بها المجالس الخاصة بالحسبة ، فيقول : وفي يوم الثلاثاء "سادس عشر الشهر، اجتمع اشريف بركات صاحب مكة، وقاضي القضاة الشافعي ، والباش قانصوه المصارع ، وهو المحتسب أيضا بدكة الشرابية ، عند باب السلام .." وكان سبب هذا الاجتماع هو قراءة مرسوم للباشب الباشية والحسبة[١٢٠].

(١١٨) بلوغ القرى، جـ٢، ص١١٢٣ .

(١١٩) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص١١٢٣.

(١٢٠) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص١١٢٩ .

أدوات المحتسب

كان لدى محتسب مكة عدة أدوات يستخدمها في عقابه لمن لا ينفذ التعليمات المستدامة لتنظيم التعامل بين الناس في مختلف مجالات حياتهم ، ومع ندرة ذكر المصادر التي بين أيدينا لكثير من هذه الأدوات إلا أننا سنحاول إلقاء الضوء عليها مما أتيح الوقوف عليه ، عند محتسب مكة أو غيرها من بلدان السلطنة المملوكية وبخاصة في عاصمة الدولة القاهرة . فمن الأدوات التي جاء ذكرها كثيرا (المقارع) ، جمع مقرعة وهي خشبة يضرب بها المذنب تحت رجليه ، وقد كانت مشهورة ومعروفة لدى أبناء مكة طوال ذلك العصر، استخدمها رجال الحسبة من أرباب القلم ، كما استخدمها أمراء المماليك الذين تولوا الحسبة جنبا إلى جنب قيادة قوة المماليك بمكة(١٢١) .

كذلك استخدم المحتسب (الطرطور) (١٢٢) ، وهو غطاء للرأس طويل دقيق من أعلى ، وكان يصنع من اللباد ، ويزود بالخرق الملونة ، ويزخرف بالخرز، والودع والأجراس وأذناب الثعالب والسنانير ، فيضعه على رأس المذنب عند تشهيره وتجريسه(١٢٣) . كذلك كان لديه السوط والدرة وهما من أدوات الضرب ، وعادة ما كان يتم صنعهما من جلد البقر أو الجمال ، وبالنسبة للدرة فإنها عادة ما يتم حشوها بنوى التمر (١٢٤) .

---

(١٢١) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص٦٧٨، ٩٦٣، ٩٦٤ ؛ الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٤٠٤ .

(١٢٢) الطرطور: جمع طراطير : قلنسوة طويلة تضيق كلما طالت . أو شخص ضعيف لا يملك اتخاذ القرارات . العايد، أحمد وآخرون، المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية ومتعلميها، ص ٧٩٠ .

(١٢٣) وهو أن يشهر المذنب في طرقات المدينة، ويضرب الجرس على رأسه ليجتمع الناس حوله، ثم يضرب أو يوسط علنا في نهاية المطاف .

الزبيدي، تاج العروس، ص ٤٩٦ ؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٤٢٢.

(١٢٤) الشيزري : نهاية الرتبة، ص٨-١٠ ؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص١٤ .

ومن الأدوات التي استخدمها المحتسب وكان لها دورها الهام في أداء وظيفته (الخاتم) أو (الختم) [١٢٥]، وقد جاء ذكره في كثير من كتب الحسبة عند الحديث عن الحسبة على الهرائسيين أي صانعي الهريسة ، التي كانت تصنع من القمح واللحم ، فبعد وضعها في القدر يُختم عليها بخاتم الحسبة ، فإذا كان وقت السحر حضر المباشر لذلك ، وفك الخاتم وهرسوها بحضرته أي في حضوره[١٢٦] كذلك يذكر الغزالي أن المحتسب ربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط ، وكان يختم به على الكتب ويقول : الخاتم على الكتب خير من التهمة[١٢٧]. كما يذكر ابن بسام أن المحتسب كان يختم بنفسه أو أحد صبيانه على مخازن الغلال ليعلم ما يرد إليها كل يوم من غلة أو ما يخرج منها[١٢٨] .

ومن الأدوات التي كانت لدى المحتسب (الدفتر) [١٢٩] ، يؤكد ذلك قول الشيزري في حديثه عن الخبازين إذ يقول : "ينبغي أن يعرف عليهم عريفا ثقة من أهل صناعتهم ويأمره أن يكتب له جريدة بأسمائهم وعدتهم[١٣٠] وإننا نرجح أن يكون هذا الدفتر أو تلك الجريدة قد تم تخصيصه أو تخصيصها لرصد أسمائهم وأماكن وجودهم ليكون

---

(١٢٥) يختمها أي يوقع الأمين على ظهرها ويختمها .

نجم، زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٢١٦.

(١٢٦) الماوردي، الرتبة في طلب الحسبة، ص٢٠٩ ؛ ابن الإخوة، معالم القربة، ص١٧٦ ؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص٣٩ .

(١٢٧) الغزالي " أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) " : إحياء علوم الدين، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٣٥٨هـ، جـ٢، ص١٣١ ؛ مصيلحي، سامية، الحياة الاقتصادية في الفسطاط في عهد الفاطميين، رسالة ماجستير غير منشورة القاهرة، جامعة الأزهر، ١٩٨٨م، ص٣١٩ .

(١٢٨) ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٢٠-٢٢ .

(١٢٩) الأوراق المتعددة المضموم بعضها إلى بعض، قال صاحب المصباح : الدفتر جريدة الحساب وكسر الدال لغة من فتحها .

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٧٥ .

(١٣٠) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٢٢ .

المحتسب على علم بها ، وعلى مقادير الدقيق التي يحصلون عليها، ومقادير ما يخبزونه من خبز ، ولمحاسبتهم إذا اقتضى الأمر، وخصوصا في أوقات الأزمات وارتفاع أسعار القمح لأي سبب كان .

وأخيرًا ينبغي الإشارة إلى أنه كان لدى محتسب مكة بعض الدواب لاستخدامها في عمليات التشهير[١٣١] والتجريس ، وإن كانت قد وردت إشارة إلى وجود بعض الدواب السلطانية والتي تم استخدامها في عدة أغراض أخرى منها بعض الثيران التي كان يتم تزيينها وزفها بالمغاني والطبل من بيت المحتسب إلى بركة المساجد ، حيث يذبح مثل هذا الثور ويوزع على العمال في موقع عملهم[١٣٢]هذا إلى جانب بعض الحبال التي يستخدمها المحتسب أو بعض أعوانه في عملية التلبيب لبعض المذنبين ، بأن يجعل ثيابه في عنقه وصدره، ثم يقبضه ويجره أمام الجمهور ولم نسمع عن معاصر الأرجل والأصداغ والكسارات . وأدوات حرق الأصابع[١٣٣] .

راتب المحتسب

كان من حق المحتسب أن يحصل على راتب من بيت المال نظير قيامه بالحسبة، من ذلك أن الماوردي قد ذكر : "أن للمحتسب أن يرتزق على حسبته من بيت المال ، وقد ذكر السنامي: "إن للمحتسب المنصوب – أي المعين – كفايته في بيت المال من الجزية والخراج ونحوهما لأنه

---

(١٣١) جمع تشاهير وهي الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان، أو عقوبة تفضي بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به في المدينة ليشهر، وقد تزفه المغاني وهو على هذه الصورة ليجتمع الناس حوله، وفي نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس.

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٤٥؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٤٢٣.

(١٣٢) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٣٩٢ .

(١٣٣) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص٩٦٤ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ٤، ص٣٨٢ .

عامل للمسلمين محبوس لهم فيكون كفايته من مالهم وصار كأرزاق الولاة والقضاة والغزاة والمفتين والمعلمين ..." [١٣٤] ومع هذا فإن كتب الحسبة لم تشر إلى مقدار راتب المحتسب ، أما المقريزي ، ففي حديثه عن مرتبات أرباب الوظائف في العصر الفاطمي فقد ذكر : " أن راتب المحتسب هو ثلاثين دينارا في كل شهر من الشهور"[١٣٥] ثم يأتي ابن تغري بردي فيوضح زيادة المرتب في العصر المملوكي الثاني ، ففي حديثه عن أحد من تولوا الحسبة سنة ٨٢٤هـ/١٤٢٦م وهو صدر الدين أحمد بن العجمي أنه كان يتقاضى راتبا شهريا بلغ ثمانين دينارا[١٣٦][١٣٧] أما المصادر الحجازية فليس فيها أية إشارة عن راتبه وكل ما لدينا إشارة واحدة عن أن راتبه كان يصل إليه في مكة ضمن أموال الصرة[١٣٨] التي بها ريع الأوقاف المحبوسة على أهل الحرم المكي الشريف ، إلى جانب أنه كان يحصل على نصيب من أموال الصدقات وهي كثيرة من بعض سلاطين المماليك ، وصدقات من بلاد الهند ، والعراق ، ومن بلاد الروم (تركيا) ، ومن كبار التجار المسلمين في كل مكان[١٣٩] إلى جانب نصيبه مما كان يرسله سلاطين المماليك وكبار الأمراء من صدقات عينية سنويا

---

(١٣٤) الرتبة، ص٦٩ ؛ الأحكام السلطانية، ص٢٣١ ؛ معالم القربة، ص٥٦ ؛ نصاب الاحتساب، ص١٠١ ؛ المجيلدي : كتاب التيسير، ص٤ .

(١٣٥) المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٤٦٤ ؛ جـ٢، ص٢٩٧ .

(١٣٦) الجمع دنانير نوع من النقود الذهبية زنة الواحد منها ٢٠ قيراطا = ٧٢حبة = ٤,٢٥ جراما . نجم، زين العابدين شمس الدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٢٥٠.

(١٣٧) النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٤٨٢، ٧٥٣ .

(١٣٨) المال المرسل من مصر للحرمين الشريفين . نجم، زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٣٥٤.

(١٣٩) ابن فهد، النجم عمر، إتحاف الورى، جـ٣، ص٥٠٩ ؛ ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٤٢٦ .

من دقيق، وبقسماط، وأرز، وكشك، وبرغل، ومن الباسلا، والجبن، والعسل، والسكر، والشمع، والزيت السكندري، والشعير، والفول(١٤٠).

اختصاصات محتسب مكة

الحسبة إحدى صور الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ، ولكي تحقق ذلك المنهج هناك ضرورة في إيقاع العقوبة الشرعية على من لا يسترشد إذا أرشد، ولا يقبل النصيحة إذا نصح، ومن ثم قيل "يزغ الله بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن"(١٤١)(١٤٢) والذي يتابع الدور الجسيم الذي قام به المحتسب وأعوانه في مكة المكرمة يستطيع أن يدرك حجم المسئولية التي كانت تبذل في هذا الصدد ، وهي مسئولية قامت على دعامتين متكاملتين: الأولى إرشادية تعليمية، كان الغرض منها تبصير المتعاملين بالحدود المشروعة للمعاملات، وكيف كان عليها أن تجيء متمشية تماما مع التعاليم الإسلامية . وكان من بين أدوار المحتسب ومسؤولياته أن يقوم بعملية إرشاد وتنوير يبصر بها الشخص الذي يتعامل مع الجماهير بالحدود المثالية في قطاع حرفة معينة ، حتى إذا عرف كان عليه أن يوثق هذه المعرفة بحلف اليمين أن يراعي مصالح الناس. أما الدعامة الأخرى، فكانت تأديبية هدفها الضرب على أيدى كل من تسول له نفسه أن يعبث بمقدرات الناس .

فالإنسان بطبعه مجبول على الخير والشر، وأحيانًا يغلب جانب الشر بسبب الطمع والأثرة وحب النفس والشح والاحتكار أو الابتزاز ، وكلها نقائص في حاجة إلى علاج ولا سبيل إلى معالجتها إلا إذا أخذت

---

(١٤٠) ابن فهد، النجم عمر، إتحاف الورى، جـ٣، ص٦٣٤ ؛ الجزيرى : "عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد الأنصاري ت ٩٧٧هـ" : الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، جـ٢، ص٧ .

(١٤١) ابن شبة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت٢٦٢هـ / ٨٧٥م)، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق : فهيم محمد شلتوت، ج٣، مكة المكرمة، نشر السيد الحبيب محمود، ١٩٧٩، ص ٩٨٨.

(١٤٢) المراغي، أحمد مصطفى، الحسبة في الإسلام، القاهرة، (د.ت)، ص٣٦ .

مأخذ الجد دون تهوين منها أو تفريط أو تقصير في المعاقبة عليها . من أجل ذلك كان المحتسب مخولا بعدد من السلطات اتخذت أشكالا شتى ، وإن كانت الغاية من ورائها واحدة وهي الضرب على أيدي المحتكرين والطامعين ومن يتاجرون بأقوات الناس ، أو يتهاونون بأمور العقيدة والدين ، أو يعملون على إفساد الموارد الطبيعية وتلويث البيئة ، والعمل بشتى الطرق والسبل على العناية بمصالح الناس ، وتوفير الراحة لهم(١٤٣) كما ينبغي أن نشير إلى أن سلطات المحتسب كانت تتجدد دائما بتجدد المنكرات ، فإذا ظهر المنكر وجد بجانبه أسلوب الحسبة يطارده حتى يقضي عليه .

السلطات التنفيذية

كان للمحتسب سلطات تنفيذية تخوله توقيع العقوبات وإن كانت العقوبات التي يفرضها لا تبلغ عقوبات الحدود ، وإذا حدث وبلغت ذلك ، فإنه كان يسند تنفيذها إلى باش مكة ، أو يحيلها إلى قاضي قضاة مكة الشافعي لإقامة الحد . مثال ذلك ما يذكره ابن فهد العز عبدالعزيز في حوادث شهر ربيع الثاني سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م عندما تم القبض على شخص سارق ، وكانت العقوبة هي قطع يد هذا السارق ، فعند ذلك يلجأ المحتسب إلى باش الترك في مكة المكرمة ليساعده على تنفيذ هذه العقوبة الواجبة ، أو إلى شريف مكة نفسه(١٤٤) .

واتفق أن شهاب الدين أحمد العاقل الشامي جلس آخر النهار في دكان أبيه بخان السلطان ، وأمر البواب أن يعمل لحماً على الصاج ، ويأتي به إليه في الخان ، وكان قد قفل الأبواب ، ففتح دكان عمه ، وأخذ منه قماشاً ، وكذا دكان لبعض التجار ، وجعل ذلك في دكان أبيه وجاءه البواب بالصاج فأكلاه جميعًا ، وفي ثاني يوم افتقد عمه ، والتاجر الآخر دكانيهما فوجدوهما مسروقين فمسكوا البواب فقال: ما كان بالخان إلا ابن العاقل فكلماه فاعترف وأعطاهما حقهما فسمع جماعة الأمير فأخذوه

---

(١٤٣) المجيلدي، كتاب التيسير، ص٢٤ ؛ حسنين، أحمد طاهر، الحسبة في الإسلام، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٥٤-٥٥ ؛ الشهاوي، إبراهيم دسوقى، الحسبة في الإسلام، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١١٣ .

(١٤٤) بلوغ القرى، ج٣، ص١٨٩٨ - ١٨٩٩.

وذهبوا به للأمير فقال : لا بد من ضربه وتعزيره وقطع يده ، وجلس في الترسيم ، والحبس إلى ثاني يوم أو ثالثه حتى عملت المصلحة يقال بمائتين للأمير ولجماعته ستين ويقال بأكثر من ذلك(١٤٥).

ويتضح من هذا النص أن عقوبة السارق تطبيق الحد عليه بقطع يده ، ولكن هذا الحد في كثير من الأحيان لا يطبق على بعض الناس ويعطل ذلك إذا قام السارق بدفع مبلغ من المال للمسؤولين ، وهذا ما يحرمه ديننا الحنيف منعاً لتفشي الرشوة والمحسوبية في تطبيق وإقامة الحدود على مرتكبي الجرائم.

ومن الاختصاصات التي عرفت عن محتسب مكة المكرمة فرضه عقوبة التعزير(١٤٦) ، والتعزير عقوبة غير مقدرة ، تجب حقا لله تعالى أو لآدمي في كل معصية، ليس فيها حق ولا كفارة ، وهو مشروع بالكتاب والسنة ، وهى تدل دلالة واضحة على أن الشريعة الإسلامية لا تبغي إلا الإصلاح والهداية ، وأعطت ولاة الأمر الحق في أخذ الناس بالأساليب التي تكفل ردعهم ، وزجرهم عن اقتراف المحظورات التي نهوا عنها ، وتحملهم على اتباع ما فيه رشادهم وصلاح أمرهم ، وعادة ما يتم توقيع التعزير على السب بغير الزنا ، أو الضرب ، أو مطل الدين مع اليسار ، أو الغش ، أو التدليس ، والناس في هذه العقوبة يتفاوتون بخلاف غيرها من المعاصي . فإنه يجوز للمحتسب أن يقبل الشفاعة ، كما يجوز له التخفيف عن شخص دون شخص يرى أن التخفيف في تقديره يصلحه ، وأنواع التعزير كثيرة ، وقد اشتهر منها الهجر ، والتوبيخ والحبس، والنفي، والضرب، والغرامة المالية(١٤٧) وهناك من أعمال التعزير التي نفذها محتسب مكة المكرمة الكثير والكثير، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة ، فقد حدث في شهر ربيع الأول سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م أن "أخذ

---

(١٤٥) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٣، ص ١٨٩٨ – ١٨٩٩.

(١٤٦) عزر يعزر تعزيرا عظمه ووقره، أو أعانه وقواه ونصره، وعزر القاضي المذنب :عاقبه بما دون الحد الشرطي ، وعزر الشخص : منعه ورده.

العابد، أحمد و آخرون، المعجم العربي الأساسي للناطقين باللغة العربية ومتعلميها، ١٩٨٨م، ص ٨٣٧.

(١٤٧) الماوردي : الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٦-٦٧ .

الأمير المحتسب كسباي موازين أهل السوق كلها ووجد كثيرا منها ناقصا ، فضربهم وعزرهم ودار بهم" أي جرّسهم ، وهي عقوبة التجريس ، وهي عقوبة شاعت في العصر المملوكي ، بفضح مرتكبي الجرائم ، وذلك بأن يقوم صبيان المحتسب المشرفون على تنفيذ العقوبة بإلباس المذنب ثيابه مقلوبة ، أو لباسا من خيش ، ويصبغ وجهه ببعض الأصباغ ثم يركب على دابة مقلوبا ، ويضرب الجرس على رأسه كي يجتمع الناس حوله ، ويطاف به في الأسواق [١٤٨]. ويذكر ابن فهد العز عبدالعزيز في موضع آخر في حديثه عن نفس السنة قوله : "واتفق قبل ذلك لمصري سوقي يبيع الموز وغيره مخالف فضرب وعزر على بقرة مقلوبا، وأخذ منه للأمير المحتسب عشرون دينارا . وكذا عمر الشرابجى بياع الهريسة ، يقال أنه وضع عليه أوزان ناقصة فغرم في ذلك للأمير عشرة، والبحيرى الذي يبيع الحب وجد بمخزنه حب مفروط فغرم نحو خمسة وعشرين دينار"[١٤٩] .

من أنواع التعزير التي كان ينفذها محتسب مكة المكرمة في ذلك العصر، ما ذكره ابن فهد العز عبدالعزيز عن أحد المذنبين، أنه استدعاه المحتسب "ثم أمر به فوضع في عنقه الجنزير[١٥٠]، وجعل مع أهل الجرائم ثم عزر وهو على تلك الحالة" [١٥١] وكذلك ما يرويه عن حوادث شهر جمادى الآخرة سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م من قول : "ضرب الأمير المحتسب سودون الفقيه مؤدب الأيتام بمدرسة السلطان قايتباي محمد بن

---

(١٤٨) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٣، ص١٨٩٨ ؛ سليم، محمود رزق، موسوعة مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة، (د.ت)، جـ٢، ص٢٩٣-٢٩٤ .

(١٤٩) بلوغ القرى، جـ٣، ص١٨٩٩ .

(١٥٠) **الجنزير**: لفظ فارسي من كلمة (زنجير) أي السلسلة ويقال: مزنجر بالحديد أي مقيد بسلسلة من الحديد، والجنزرلي هو الذي يشيد الناس بالسلاسل ويقودهم، ويصنع السلاسل وقد نقل اللفظ إلى التركية وأضيف اليه (لي) للنسبة والصنعة، كما يطلق على عملة نقدية حولها رسم سلسلة عليها بعض النقش .
دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٥٥ .

(١٥١) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٣، ص١٧١٢ .

موسى الظاهري ضربا خفيفا تحت رجليه ، بسبب أن بعض الأيتام شكا إليه أنه ضربه ضربا مؤلما ... ثم بعد يومين منع المحتسب محمد بن موسى الظاهري من المباشرة" أي تأديب الأطفال(١٥٢).

الحقيقة أن المصادر توضح أن القائم بالحسبة كانت له سلطات تنفيذية، تطورت بتطور العصور؛ وذلك لأن مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يصبح عديم الجدوى إذا لم يسانده بعض القوة والزجر، كما أن المصادر التي تحدثت عن الحسبة والاحتساب أوضحت أن سلطات المحتسب تعددت تعددا واضحا، بسبب تعدد نشاط الفعاليات البشرية، فالماوردي يذكر أن سلطات المحتسب شملت سبعين فرعا من هذه الأنشطة البشرية(١٥٣) ، بينما يذكر ابن الإخوة أن سلطات المحتسب شملت سبعين فرعا من النشاطات المختلفة(١٥٤)، ويذكر الشيزري أن سلطات المحتسب قد شملت أربعين مجالا مختلفا(١٥٥) ، كما يذكر ابن بسام أن سلطات المحتسب قد غطت الحرف المشهورة دون غيرها في مجالات بلغت الثمانية عشر والمائة(١٥٦) ولو أننا تناولنا بالحديث سلطات المحتسب في كل مجال من تلك المجالات المتعددة لاحتجنا إلى عدة مجلدات، كما أن طبيعة البحث لا تمكننا من ذلك. وعلى هذا الأساس سنقوم بتخليص ذلك في عدة نقاط لعلها تكون أكثر من فائدة .

(١٥٢) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى جـ٢، ص١٠٤٩، ١٠٥٠ .

(١٥٣) الرتبة في طلب الحسبة، ص٥٨-٦١ .

(١٥٤) معالم القربة، ص٤٦-٥٠ .

(١٥٥) نهاية الرتبة، ص٤-٥ .

(١٥٦) نهاية الرتبة، ص٤-٩ .

المعاملات اليومية

كان من سلطات المحتسب أن يأمر الناس بأداء الأمانات والنهي عن المنكرات من الكذب والخيانة، وتطفيف[١٥٧] المكيال والميزان، ويمنع التدليس في البيع والشراء بكتمان العيوب، بأن يكون ظاهر البيع خيرا من باطنه، كذلك يمنع النجش وهو أن يزيد في ثمن السلعة من لا يريد شراءها، كونها نوعًا من المنكر والخديعة لمن يشترى. إلى جانب محاربة احتكار ما يحتاج الناس إليه ، لما في ذلك من ظلم المشترين بحبس الطعام وإغلائه عليهم ، ولهذا كان له أن يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند الضرورة الملحة ، وقد قال العلماء من اضطر إلى طعام عند غيره أخذه منه بغير اختياره بقيمة مثله ، ولو امتنع من بيعه إلا بأكثر من سعره لم يستحق إلا سعره[١٥٨] .

الإحصاء السكاني

تجدر الإشارة إلى أن محتسب مكة المكرمة طوال ذلك العصر قد انفرد بعدة سلطات عن غيره من رجال الحسبة في مدن السلطنة ، فقد كان من سلطاته أن يطالب مشايخ الحارات في مكة مثل شيخ أهل المسفلة[١٥٩] ، وشيخ أهل المعلاة ، وأهل سوق الليل ، والشبيكة[١٦٠] ،

---

(١٥٧) يطفف، طفف، تطفيفا، قتر وبخل على فلان أعطاه اقل مما أخذ منه . المكيال أول الوزن : مقصه قليلا فهو مطفف .

هادية علي و بلحسن البليش و الجيلاني بن الحاج، القاموس الجديد، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩، ص ٦١١

(١٥٨) الماوردي، الرتبة، ص٦٤ ؛ المراغي، الحسبة في الإسلام، ص٢٥-٢٦ .

(١٥٩) من السفل، كان يطلق على كل ما انحدر عن المسجد الحرام، غير أنه اليوم علم على حي من مكة المكرمة يمتد من المسجد الحرام جنوبا غربيا إلى ما وراء بركة ما جل ينحدر فيها سيل وادي إبراهيم ويعتبر بعضهم قوز المكاسة من المسفلة .

البلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، مكة المكرمة، دار مكة، ١٩٨٢هـ، ج٨، ص ١٥٤.

وأجياد[١٦١] ، أن يقوموا برصد حالات الوفيات والولادة في حاراتهم وإبلاغه بها بصفة دورية[١٦٢] . فلو أخذنا هذا الاختصاص وطبقناه على محتسب القاهرة في العصر نفسه وهو العصر المملوكي لوجدنا أن الذي كان يقوم به هو كبير التراجمة[١٦٣] وليس المحتسب، ففي سنة ٨٨٥هـ/١٤٨١م كان كبير التراجمة تغرى بردي يكلف رؤساء الأحياء أو مشايخ الحارات في القاهرة والذين بلغ عددهم آنذاك ٢٤ حيًّا، بأن يبلغوه مساء كل يوم بعدد المواليد والوفيات التي تحدث لديهم[١٦٤].

---

(١٦٠) تصغير الشبكة التي يصاد بها، حي كبيرمن أحياء مكة يمتد من المسجد الحرام الى ربع الحفائر وشمالا الى حارة الباب . وهي من أعرق احياء مكة، ولها مقبرة مهجورة بطرفها الغربي ملاصقة للمسجد الكبير الذي اقيم سنة ١٣٩٩هـ .

البلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، ج٥، ص ١٨

(١٦١) بفتح أوله، وإسكان ثانيه، وبالياء أخت الواو، والدال المهملة، كأنه جمع جيد : موضع من بطحاء مكة المكرمة، من منازل قريش البطاح .

البكري، أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق : جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ص ١٠٧.

(١٦٢) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٤٩٤-٤٩٥ .

(١٦٣) من موظفي مجلس الحكم وهو الذي يقوم بمهمة الترجمة من التركية للغة الباشا أو المماليك الترك إلى العربية وبالعكس أو لوجود الأجانب بسبب اتساع التجارة، هو من يقوم بنقل الكلام من لغة إلى لغة وتفسيره بلسان آخر .

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ١٥٣.

(١٦٤) علي السيد علي، التراجمة في عصر سلاطين المماليك"، مجلة تصدرها اللجنة الوطنية القطرية للتربية والعلوم، العدد ١٠٣، سبتمبر ١٩٩٢م، ص١٦٩.

رفع الطرحاء

من الأمور التي تلقي عدد من المصادر بعض الأضواء الجديدة على اختصاص محتسب مكة المكرمة آنذاك، اختصاصه ومسئوليته عن الطرحاء، وهم الأشخاص الذين يوجدون موتى أو مقتولين في الشوارع أو في بعض الأماكن النائية، أو شهداء الأوبئة مثل الطاعون وغيره . فقد كان عليه أن يأمر بحمل هؤلاء إلى منازلهم إذا كانت معروفة ، ويخصص لأمثال هؤلاء بعض الأشخاص يسمى الواحد منهم(مشيع الطرحاء)، مثال ذلك ما جاء عن الشريف جازان بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ، الذي توفي سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) بعد أن تعرض له ثلاثة من المماليك "ضربه أحدهم بكزلك[١٦٥] في بطنه ، وضربه الثاني بالسيف على وجهه ضربتين ، ثم ضربه الثالث على رجليه فسقط إلى الأرض ، وصاروا يطعنونه بالكزالك التي معهم حتى لم يبق فيه حياة. وصار ملقى بالمعجنة[١٦٦] فأمر الباش المحتسب عبد الله المصرى مشيع الطرحاء بأخذه ويذهب به إلى بيته" [١٦٧] أما إذا كان الشخص الطريح من المماليك ومعروفا فقد كان يأمر بأخذه "وتجهيزه للصلاة عليه ثم دفنه"[١٦٨]. وما أكثر من كانوا يموتون من الحجاج بسبب الزحام ، وبسبب ما كان يحدث من فتن بين أهل مكة والحجاج، أو ما كان يحدث بين المماليك وأشراف مكة من قتال حتى في داخل الحرم[١٦٩] .

العناية بموارد المياه

---

(١٦٥) يبدو أنها نوع من الأسلحة الخفيفة، ولم يعثر لها على تفسير .

ابن فهد، العز عبد العزيز، بلوغ القرى، ص ١٣٠٢

(١٦٦) وهي قريبة من باب الكعبة، والمعجنة هذه مكان يعمل فيه ما يستخدم في إصلاح الكعبة والمسجد الحرام.

ابن فهد، العز عبد العزيز، غاية المرام، ج٣، ص١٦٦.

(١٦٧) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص١٣٠٢-١٣٠٣ .

(١٦٨) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٣٥٢ - ٣٥٣.

(١٦٩) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١٩٢ ؛ الجزيرى، الدرر الفرائد، جـ٢، ص٢٤٤-٢٤٥ .

من اختصاصات محتسب مكة المكرمة العناية بموارد المياه فيها وفي خارجها ، بل والاهتمام بالمنشآت المائية ، فمن هذه الموارد عيون الماء أمثال (عين أبي رخم) و(عين حنين) [١٧٠] و(عين ثقبة)، ومن البرك "بركة بازان" التي بالصفا ، والبرك الأخرى التي بمكة وحرمها ، وقد جاء ذكر بركتين عند باب المعلاة متلاصقتين ، ولم يكن دور المحتسب قاصرا على الحفاظ على مياه هذه العيون وتلك البرك فحسب، بل والعمل على عدم تلوثها ، كأن يمنع "الصغار ، ومن يريد النزول إلى الماء خوفا على الماء من تغيره بالنزول فيه" كون ذلك نوعًا من خدمة البيئة في مكة. وقد رصد أحد المؤرخين هذه العيون وتلك البرك، وكذلك الآبار غير المعطلة على عصره، فجاءت على النحو التالي: عيون مكة سبع عيون، وآبارها ٥٨ بئرًا غير المعطلة و١٥ بئرا بمنى، وعدة آبار في عرفة، أما البرك فقد ذكر ٩ برك يستفاد من مائها بالإضافة إلى عدد كبير من الأسبلة[١٧١] التي وصل عددها إلى أكثر من مائة سبيل، والمطاهر (أي المياضي) المنتشرة في كل أنحاء الحرم المكي. وكلها منشآت ضخمة، وتعتمد في بقائها على الماء، وهذه الاختصاصات إن دلت على شيء فإنما تدل على ضخامة الجهود التي كان يبذلها محتسب المدينة المقدسة في توفير الماء العذب، الذي كان أهل مكة وزوارها

---

(١٧٠) عين حنين وعين زبيدة ينبعان من جبل شاهق له (طاد) يقع بين جبال الثنية – وهذا الاسم معروف إلى يومنا هذا – وهو واقع بالقرب من مزارع الشرائع في طريق مكة الطائف المار باليمانية وكان يجري الماء من جبل طاد إلى حائط حنين فاشترت السيدة زبيدة ذلك الحائط وأجرت الماء في قنوات إلى مكة . وهي اليوم متوقفة عن الجريان إلى مكة، وتسقي زروعا ونخلا في حنين . وماؤها غير عذب.

البلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، ج٥، مكة، دار مكة، ١٩٨٠م، ص ٢٠٥.

(١٧١) **لغة** إباحة الشيء من مال ونحوه.

والسبيل اصطلاحا : مكان عام للشرب جعل ماؤه لسقاية عابري السبيل من قبيل أعمال الصدقة .

الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم الألقاب التاريخية، ص ٢٣٧ – ٢٣٨.=

أما السبيل في المصطلح الأثري المعماري : فهو عبارة عن بناء صغير كان يخصص في الأماكن العامة وأركان الأبنية الدينية والمدنية للشرب منه .

عاصم، محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مصر، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠م، ص ١٣٧.

وحجاج البيت يلقون في الحصول عليه مشقة زائدة ، وخاصة في أوقات الذروة في موسمي العمرة والحج ، حتى أن الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهم ، وأقل وأزيد . ناهيك عن دور المحتسب مع السقائين في شتى أنحاء مكة المكرمة، أو في داخل الحرم الشريف، وهم الذين عرفوا باسم (سقائي الحرم). وكذلك الشروط التي كان يضعها للعاملين في تلك المنشآت وللسقائين والأدوات المستخدمة في نقل الماء وتناوله ، وخصوصا من حيث هي شروط صحية للحفاظ على المياه وعدم تلوثها ولصحة الشاربين[١٧٢] .

تنقية بئر زمزم

من الاختصاصات المهمة لمحتسب مكة الاهتمام الفائق ببئر زمزم ومائه، والذي يقول عنه الرحالة المغربي ابن جبير "وهذا الماء المبارك في أمره عجب، وذلك أنك تشربه عند خروجه من قرارته، فتجده في حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئًا، وذلك فيه من الله تعالى آية وعناية، وبركته أشهر من أن تحتاج لوصف واصف، وهو لما شرب له، كما قال صلى الله عليه وسلم : أروى الله منه كل ظامئ إليه، بعزته وكرمه" [١٧٣] ويقول عنه ابن بطوطة الذي زار البلاد على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون "٦٩٣-٧٤١هـ/١٢٩٣-١٣٤٠م" : "وعمق البئر إحدى عشرة قامة ، وهم يذكرون أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة.." [١٧٤] ومن الواضح من خلال ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة أن محتسب مكة كان دائم الحرص على نظافة بئر زمزم وتنقية مائها، إذ كان يكلف شخصًا غطاسا يجيد الغوص بالنزول إلى أعماق البئر التي تبلغ حوالي ٣٨ر٧٥ مترا ، ليرفع لهم في السطول ما فيها من الأتربة والأوساخ والتي تساعد على ملوحه مياه البئر، والحق

(١٧٢) الفاسي، جـ١، ص٣٥-٥٦١ ؛ ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٤٩٤-٤٩٥.

(١٧٣) "أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني ت ٦١٤هـ/١٢١٧م"، رحلة ابن جبير، بيروت، نشر دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩١٨م، ص٩٠.

(١٧٤) رحلة ابن بطوطة، ص١٣٧ .

يقال أن الوصول إلى قاع هذه البئر وحمل الطين والأتربة والمخلفات يعتبر من الأمور الشاقة جدا . فضلا عن أن المحتسب ورجاله لم يتركوا هذه المخلفات بجوار البئر منعا للتلوث ، وإنما كان يستعين فى حملها بعيدا "بجمال السلطان ودوابه" ، والتي يبدو أنها كانت موضوعة تحت تصرفه لمثل هذا الغرض ، أو لغيره من الأغراض التي كان الهدف منها هو رعاية الحرم المكي وخدمة البيئة ومنع التلوث(١٧٥) .

وأحيانًا يقوم المحتسب ورجاله بعملية تنقية ماء بئر زمزم قبل موسم العمرة والحج ، وقبل ليلة النصف من شعبان من كل سنة . والتي يحدثنا عنها ابن جبير بقوله: "ولم يبق بمكة صبي إلا وصبحه واجتمعوا كلهم في قبة زمزم ، وينادون بلسان واحد: هللوا وكبروا ياعباد الله ، فيهلل الناس ويكبرون .. والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة لأنهم يزعمون أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان"(١٧٦).

(١٧٥) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٢٦٧، وحاشية رقم ٥ .

(١٧٦) رحلة ابن جبير، ص ١٠٤-١٠٥ .

العناية بالطرق والنظافة

ومن اختصاصات محتسب مكة المكرمة العناية بشوارع مكة ، ونظافتها ، وإماطة الأذى عنها وخصوصا في موسم الحج ورمضان، فكان هو ورجاله يقومون بدور كبير في مكافحة التلوث بل ونشر الوعي الديني الصحيح بين الحجيج ، وهذا يفسر قول ابن فهد العز عبدالعزيز: "وفِعل الحجيج منكرا آخر وهو أنهم يذبحون الشاة، ويرمونها بالطرقات، والفقراء لا يشعرون بذلك. وصارت الطرقات يشم فيها الروائح الخبيثة، وغالب هذه الذبائح لا تجزئ لاسترخاص المشترين؛ لأن سنها لا يبلغ سن الإجزاء أو لضعفها أو لنقصها "[١٧٧]ومن هذا النص يتضح دور المحتسب في خدمة البيئة وحمايتها من الملوثات ، وهو دور بلا شك كبير ، يتفق مع ما جاء به الإسلام من ضرورة إماطة الأذى عن الطريق والاهتمام بنظافة الطرق . كما كان يقوم بمنع الباعة من بسط البضائع أيام الموسم بالمسجد الحرام ، ومن ضرب الناس الخيام بالمسجد على المصاطب وأمامها . ويشدد على بوابي أبواب الحرم بملازمة أبواب الحرم ليلا ونهارا وألا يغيب أحدهم عن بابه إلا لضرورة ، وأن يتعاهد كل بواب منهم بابه بالكنس والرش والتنظيف، ومنع الكلاب والجواري الحاملات للماء والجمال من الدخول في المسجد الحرام [١٧٨] .

(١٧٧) بلوغ القرى، جـ٢، ص ٧٧١ – ٧٧٢.

(١٧٨) ابن فهد، النجم عمر، إتحاف الورى، جـ٣، ص٦٤٤-٦٤٦.

محاربة التشيع[١٧٩]

منذ سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) صدرت التعليمات إلى محتسب مكة وناظر الحرم الشريف "من السلطان بإلغاء مقام الزيدية، والإنكار عليه في ذلك" حيث كان له مقام يصلى فيه، ويصلي خلفه أتباعه، مثل مقامات الشافعي والحنبلي والحنفي والمالكي[١٨٠] وكان على محتسب مكة أن ينفذ سياسة الدولة هذه والتي ظلت متبعة بعد ذلك، فكما كان من اختصاصه حضور الجلسات التي يعقدها قاضي قضاة مكة الشافعي ، خصوصا عندما يتم القبض على أحد الرافضة من الشيعة الذين يجيزون الطعن في الصحابة – رضوان الله عليهم - مثلما حدث في يوم الخميس تاسع عشر شهر صفر سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م عندما جيء إلى مكة بشخص من جبل عرفات "نقل عنه كلام سيء قبحه الله تعالى ، فبلغ ذلك شيخ الإسلام قاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة فأرسل إليه من اختبره فوجده رافضيا خبيثا مع ما نقل عنه من الكلمات الكفرية والأفعال القبيحة الدنية .. ثم أمر به إلى الحبس فحبس إلى ثاني تاريخه يوم الجمعة عشري الشهر ، وعقد له مجلس بالمسجد الحرام حضر فيه القضاة الأربعة والمحتسب وغيرهم من الفقهاء والجند .. ثم أمر به إلى بيت الأمير

---

(١٧٩) من المشايعة وهي متابعتك إنسانا على أمر، والشيعة : قوم يتشيعون، أي يهوون أهواء قوم ويتابعونهم، وشيعة الرجل : أصحابه وأتباعه، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ / ٧٨٦م)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد، دار الرشيد، طبعة وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية، طبعة دار الحرية، ١٩٨٤م، ج٢، ص ١٩٠

(١٨٠) ابن كثير "عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م " : البداية والنهاية في التاريخ، طبع مطبعة دار السعادة بالقاهرة، ١٩٣٩م، جـ١٤، ص١٢٣، ١٢٤ ؛ ابن فهد، النجم عمر، إتحاف الورى، جـ٣، ص١٨٤ ؛ الجزيري، عبدالقادر بن محمد الأنصاري (ت ٩٧٧هـ)، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، بيروت، دار صادر، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م، جـ١، ص٣٠٠ .

فضرب ضربا مبرحا ، وعزر على جمل في شوارع مكة ، ثم أودع في السجن" (١٨١).

محاربة الأمراض الاجتماعية

قام محتسب مكة طوال ذلك العصر بدور كبير في محاربة كثير من الأمراض الاجتماعية ، لمنع انتشارها أو للحد منها . ومهما قيل عن طبيعة مكة الدينية ففيها بشر من كل جنس والبشر معرضون للخطأ ، والدليل على ذلك ما يرويه ابن فهد العز عبدالعزيز عن دور محتسب مكة من أنه كان يعاقب المشعوذين والسحرة رجالا ونساء ، ويضرب لنا مثالا لذلك بما حدث في شهر جمادى الآخر سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م . من أن امرأة تركمانية جاءت إلى أسرة الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ، وجاءوا لها بقارورة فيها ماء "فقالت شيئا أو عملت فيه شيئا حتى صار دما ... وأرادوا شنقها" ولما علم المحتسب بقصتها "أمر بها فحبست وفي ثاني يوم أخرجت وعزرت مقلوبة على حمار في شوارع مكة" (١٨٢).

ومن الأمور الجديدة التي يلقي بعض المؤرخين ضوءًا جديدًا عليها أنه في بدايات القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وبالتحديد في ثاني عشر محرم سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م والسابع عشر من ربيع الأول سنة ٩١٧هـ/١٥١١م حدث خلاف بين علماء وفقهاء مكة في حل أمر تحريم القهوة، لأن القهوة أخذت في الانتشار وأخذ الناس يطحنونها ويخمرونها حتى تُسكر ويجتمعون حول شربها في مجالس يلعبون فيها ، وذلك في أيام خاير بك المعمار ناظر الحسبة الشريفة بمكة المكرمة وباش المماليك السلطانية فيها . وبعد جدال وحوار بين المجتمعين صدر مرسوم المحتسب بمنع شرب القهوة على الشكل الذي وصف به. ولما تم

(١٨١) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص١٣٢-١٣٣ .

(١٨٢) بلوغ القرى، جـ٢، ص ١١٩٧.

الأمر على ذلك أمر المحتسب رجاله بالنداء في كل مكان بمكة المكرمة بالمنع من تعاطي القهوة إن كانت مسكرة(١٨٣).

وكانت هذه إحدى المحاولات الناجحة لمحتسب مكة لمنع مرض اجتماعي خطير قبل أن يتفشى في مجتمع مكة في أواخر العصر المملوكي ، وحتى أواخر العصر المملوكي كان محتسب مكة يبذل كل جهده في محاربة شرب الخمر ، وإيقاع عقوبة التشهير والتجريس على من يتم ضبطه، ويأمر بعض صبيانه بأن يجعلوا جرة الخمر في رقبة من تم ضبطه، وأن يطاف به في أنحاء مكة إلى أن يصلوا به إلى باب الصفا ، وهناك يتم كسر هذه الجرة ، ثم يأمرهم بحبسه ، حتى يرتدع غيره ممن تسول له نفسه شرب الخمر(١٨٤) .

إحرام الكعبة والعناية بها

ومن الأمور التي اختص بها محتسب مكة في ذلك العصر حضور عملية تشمير الكعبة ، والتي كانت تتم عادة في المدة ما بين اليوم الرابع والعشرين واليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة من كل سنة، وهي التي تسمى بعملية (إحرام الكعبة). والتي وصفها ابن بطوطة بقوله : "تشمر أستار الكعبة، زادها الله تعظيما، إلى نحو ارتفاع قامة(١٨٥) ونصف من جهاتها الأربع .. وهو يوم مشهود بالحرم .." (١٨٦) ومن الواضح أن حضور المحتسب ومعه رجاله ومن يستعين بهم كان للمحافظة على كسوة الكعبة "صونا لها من الأيدي أن تنتهبها" . كذلك كان من مهام محتسب مكة الحضور إلى الكعبة عند غسل الكعبة بماء

---

(١٨٣) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، ص ١٦٦٣ – ١٦٦٤ ؛ عن ذلك انظر : الجزيرى "عبد القاهر بن محمد ت ٩٧٧هـ/١٥٦٧م"، عمدة الصفوة في حل القهوة، تحقيق عبد الله بن محمد الحبشي، منشورات المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٥٩-٦٣ .

(١٨٤) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٣، ص١٩٧١ .

(١٨٥) هي طول ارتفاع قامة الإنسان .

هادي، علي و بالحسن البليش و الجيلاني الحاج، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م، ص ٨٠٧.

(١٨٦) رحلة ابن بطوطة، ص١٦٨ .

زمزم ، مرة في ربيع الثاني، ثم تعطر وتبخر، وغالبا ما يكون ذلك بحضور ولاة الأمر، وسدنة الكعبة[١٨٧] من آل الشيبي[١٨٨].

كذلك كان من اختصاصه رعاية الحرم المكي، وتحديد ما يحتاج إلى إصلاح، مثلما حدث في يوم السبت ثالث عشر شوال سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م حين حضر قاضي القضاة ناظر الحرم الشريف برهان الدين بن ظهيرة ، وحضر معه الأمير المحتسب سنقر الجمالي وأحد كبار التجار ويدعى الخواجا جمال الدين الطاهر، وكشفوا على أماكن بالرواق[١٨٩] الوسطاني من الناحية الغربية من المسجد الحرام ، واتفقوا على إصلاح خشبات فيه مكسرات ، وعلى إصلاح أماكن أخرى من سقف أروقة المسجد الحرام ينزل منها ماء المطر[١٩٠] .

ومن الاختصاصات التي كان على محتسب مكة القيام بها حضور المجالس التي يعقدها قضاة مكة الأربعة بالمسجد الحرام ، وحضور مجالس قراءة المراسيم الواردة من مصر بصحبة أمير الحاج المصرى لأهميتها المتعددة ، كذلك كان عليه استقبال كبار الشخصيات التي تفد إلى مكة سواء كانوا من بلاد السلطنة، كأمير حج الشام ، ونائب جدة ، وغيرهم من بلدان العالم الإسلامي ، واستضافتهم والقيام بكل ما يلزمهم

---

(١٨٧) خدامة البيت أو حجابة، وسدانة الكعبة اصطلاح ورد في المصادر التاريخية منذ العصر الجاهلي للدلالة على وظيفة دينية كان شاغلها يمتلك مفاتيح الكعبة، وكانت سدانة الكعبة ومفاتيحه مع بني إسماعيل حتى انتهت إلى نابت من ولد إسماعيل فصارت من بعده لجرهم وانتهت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة بن عبد الدار ثم تولاها من بعده ولده شيبة واستمرت بأحفاده إلى الآن.

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٣١٥-٣١٦ .

(١٨٨) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص١٦٨ ؛ ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٦٤٢ .

(١٨٩) جمع أروقة ورواقات وروق، سقف في مقدم البيت من أعلاه إلى الأرض .

المنجد الأبجدي، ط٩، بيروت، دار المشرق، ١٩٦٧م، ص ٥٠٢.

(١٩٠) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٩٨-١٠٠ .

فترة وجودهم بمكة للعمرة أو الحج، وملازمتهم في الطواف والسعي يلازمه غالبا في ذلك شريف مكة وقاضي القضاة الشافعي[١٩١] .

التغلغل في المجتمع المكي

ينبغي أن نشير إلى أن محتسب مكة المكرمة في ذلك العصر لم يكن يجد فرصة للتغلغل في المجتمع المكي إلا وانتهزها، فما من عقد قرآن يتم في الحرم المكي الشريف إلا وكان المحتسب حاضرا فيه بوجه عام، وفي الزواج الخاص بأحد أفراد الشريحة العليا في المجتمع بوجه خاص، ويكون حاضرا جنبا إلى جنب مع شريف مكة، وباش مكة، وخطيب الحرم، وكبار التجار، والفقهاء[١٩٢] كما جرت العادة بمكة في ذلك العصر في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول من كل سنة أن يتهيأ قاضي مكة الشافعي لزيارة المكان الذي ولد به سيدنا محمد ρ ، وهو بسوق الليل ومشهور باسم مولد النبي، وذلك بعد صلاة المغرب في الحرم، فيخرج في جمع عظيم منهم الثلاثة القضاة وأكثر الأعيان من الفقهاء والفضلاء، وذوي البيوت بفوانيس كثيرة وشموع في زحام شديد ، ويحضر معهم شيخ الحرم النبوي ، ونائب جدة ، والمحتسب وجمع من الناس، وفي اليوم التالي تقام وليمة المولد التي يحضرها القضاة والمحتسب [١٩٣] ويصف ابن جبير هذا المكان بقوله : ومن مشاهدها الكريمة – يقصد مكة – أيضا مولد النبي ρ والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مست جسمه الطاهر، بني عليها مسجد لم يُر أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزل به، والموضع المقدس الذي سقط فيه ρ ، ساعة الولادة السعيدة المباركة التي جعلها الله رحمة للأمة أجمعين محفوف بالفضة .. يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه، لأنه شهر مولد النبي ρ، وفي اليوم المذكور ولد ρ، وتفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها ، وهو يوم مشهود بمكة دائمًا.

---

(١٩١) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص١١٢ –١٤٧ ؛ ٤١٣، جـ٢، ص١٠٩٦.

(١٩٢) ابن فهد العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص٨٦٨ .

(١٩٣) ابن فهد العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٦١٦–٦١٧ .

ولعل السر في وجود محتسب مكة في هذا اليوم يرجع إلى حرصه على مشاركة أهل مكة احتفالاتهم الدينية، ولتنظيم الزيارة، ومساعدة كبار السن، وتوفير ما قد يحتاجون إليه من ماء. ولم تكن مشاركته قاصرة على هذا المولد، بل شارك أهل مكة في غيره من الموالد مثل مولد على بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب، ومولد فاطمة الزهراء، وإن كانت هذه الموالد مساجد، ولكنها معروفة عند الناس بالموالید(١٩٤) .

ومن الأمور التي كان يقوم بها مجاملة لأعيان أهل مكة، من القضاة وغيرهم أن يحضر حفلات طهور أولادهم ضمن كبار الشخصيات التي تحضر، ومشاركتهم الفرحة والسعادة، بل ودفع بعض المبالغ النقدية، وهى ما يسمى بـ(النقوط)، يفعل ذلك استجلابا لخواطرهم وربما تقربا إليهم ، أو لمشاركتهم أفراحهم. فضلا عن حضور جنازة من يموت منهم، مثال ذلك ما حدث عندما توفي قاضي القضاة فخر الدين أبو بكر بن علي بن ظهيرة في رمضان سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٤م في ليلة الأربعاء ثاني عشر الشهر ، وشيعه خلق كثير كان من بينهم محتسب مكة، وقرأ الربعة عدة مرات.

كما كان يكلف بعض أتباعه لاستطلاع هلال شهر رمضان المبارك ، فإذا ثبتت الرؤية، أمر مناديا أو أكثر بالنداء بالصيام من الغد . ومن المهام التي نفذها بشكل دائم أنه كان يكلف بعض أتباعه ليدوروا على النائمين في المسجد الحرام قبيل صلاة الفجر للاستعداد لصلاة الفجر وأنها خير من النوم .كما قدم خدمات لا تنكر في مساعدة منكوبي السيول، ورفع الأنقاض التي كانت تتراكم في الحرم المكي والتي تدخلها السيول، بل وفي انتشال بعض جثث منكوبي السيول وضحاياها وتجهيزها والصلاة عليها ثم دفنها في أقرب المقابر(١٩٥).

---

(١٩٤) رحلة ابن جبير، ص٨١-٨٢ ؛ الفاسي : شفاء الغرام، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، جزآن، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م، جـ١، ص٣١٨-٤٣٥ .

(١٩٥) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص٧٣٣، ٧٥٤، جـ١، ص٢٤٥.

ومن اختصاصاته كذلك الحضور لدى قاضي قضاة مكة الشافعي عند ورود أموال الصرة، وهى أموال كان السلطان يرسلها من مصر إلى أمراء مكة وأشراف الحجاز ، في موسم الحج لإنفاقها على العلماء والفقراء في الحرم الشريف ، كما يرسل قسمًا منها إلى شيوخ القبائل لضمان عدم اعتدائهم على قافلة الحج . وتوزع تلك المبالغ على الأشخاص المسجلة أسماؤهم في دفتر خاص ، وهذا يؤكد دوره الاجتماعي في مجتمع مكة ذلك العصر(١٩٦)

ينبغي أن نشير إلى أن طبيعة عمل محتسب مكة في الإشراف على الأسواق حتمت عليه أن يكون على صلة وثيقة بمشايخ الأسواق في المدينة ، وربما تزوج منهم ، حتى يتمكن من معرفة كل ما يدور في أسواقهم ، وليبلغهم بكل ما يخص كل واحد منهم في سوقه ، وكذلك الحال بالنسبة لنائب المحتسب والذي كان مفروضا فيه أن يبلغه بكل صغيرة وكبيرة عن كل سوق (١٩٧) .

وجدير بالذكر أن اختصاصات محتسب مكة المكرمة في ذلك العصر لم تكن قاصرة على أهل مكة وحدها، بل امتدت أحيانا إلى المدينة المنورة حيث قدم خدماته لها ، يؤكد ما ذهبنا إليه ابن فهد العز عبدالعزيز في حديثه عن حوادث شهر ذي القعدة سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٤م ، بأن محتسب مكة الأمير سنقر الجمالي قد جاءه مرسوم سلطاني من القاهرة بضرورة التوجه إلى المدينة النبوية الشريفة "لأجل عمل السماط(١٩٨)

---

(١٩٦) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص ٦٤١، هامش ٢ ؛ بلوغ المرام، ج ٣، ص ٥٠.

(١٩٧) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص١٩٨ ؛ الزهراني، ضيف الله بن يحيى، و غباشي، عادل محمد نور، تاريخ مكة التجاري، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، ص ٣٥ – ٣٨، ٨٦ – ٨٧.

(١٩٨) المائدة السلطانية، أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين .
دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٣٢٧ .

المحمدي، والدشيشة[١٩٩]، ويأمر المحتسب سنقر الجمالي بالتوجه إلى المدينة الشريفة ليوافيهم بها .." [٢٠٠] .

كانت وظيفة محتسب مكة من الوظائف الهامة، إذ لم يقتصر دورها على ما سبق، بل كان من سلطته مصادرة[٢٠١] الأشياء المغشوشة والتصدق بها على الفقراء، كخبز وطعام لم ينضجا وعرضا للبيع، أو طعام خلط بصنف رديء، وأظهر البائع للمشتري أنه جيد ، لما في ذلك التصدق من نفع للفقراء، مع حصول المقصود من إتلافه، كما كان من سلطاته أن يأمر بإزالة الغش أو بيع المغشوش لمن يعلم أنه مغشوش على ألا يغش به غيره ، وفي هذا مجازاة لمن يغش ، لانخفاض سعره ، فكان يأمر ببيع اللبن والعسل والسمن الذي تم غشه لمن يأكله مع بيان أنه مغشوش[٢٠٢].

معاقبة المحتسب إن أخطأ

كان المحتسب يُحاسب إذا أخطأ، أو أغفل أمراً، أو أخذ رشوة من تاجر، أو صانع، أو تعسف، أو ظلم الناس، وقد ذكر أنه في شعبان سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م وصل مرسوم لصاحب مكة الشريف أبي القاسم بن حسن بن عجلان " بأن يكشف عن أمر محتسب مكة ، فإنه أنهي إلى السلطان أنه كثير الرشى، فإن كان الأمر كما ذكر عين محتسباً عوضه، وإن لم يكن الأمر كذلك فيبقى على وضعه، والأمر في ذلك مفوض إلى السيد أبي القاسم أمير مكة ، فتكلم السيد حسن ناظر الإسكندرية الذي كان

---

(١٩٩) هي القمح المجروش ليوزع على الفقراء من أهل الحرمين (مكة والمدينة) .

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٢٣٩.

(٢٠٠) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ١، ص٣٦٧-٣٦٨ .

(٢٠١) أخذ السلطان مال الغير جبرا بغير عوض، الاستيلاء على مال شخص بالقوة، أخذ غرامة وضريبة، وهي عقاب موضوعه استصفاء مال المحكوم عليه واستيلاء الدولة عليه .

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٤٤٩

(٢٠٢) ابن تيمية، تقي الدين أحمد (ت ١٣٨/٧٢٨م) الحسبة في الإسلام، القاهرة، منشورات محب الدين الخطيب، ١٤٠٠هـ /١٩٧٩م، ص٢٨-٣٠ ؛ المراغي، أحمد مصطفى، الحسبة في الإسلام، ص٣٩ .

مع الشريف أبي القاسم في عزل المحتسب وتولية- عوضه- عبدالرحمن بن غانم والي مكة المشرفة. فامتثل لأمر الشريف أبي القاسم وولي عبدالرحمن فباشر من يوم الاثنين عشري شعبان(٢٠٣). وفي المحرم سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م عقد مجلسٌ عند الباش قانصوه المصارع بالدكة(٢٠٤) عند بيته بالمسجد الحرام حضره القضاة الثلاثة والمحتسب وتكلموا بسبب المحتسب ، وذكر الباش أنه جاءه ورقة من القاضي كاتب السر(٢٠٥) من ينبع(٢٠٦) وفيها أنه ورد علينا مرسوم من السلطان بأن المحتسب بمكة ، لا يأخذ من أحد شيئاً وامتنع المحتسب من ذلك إلا حتى يجيء مرسوم سلطاني ، ولذلك ففي جمادى الأولى من سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م وصل مرسوم من مصر إلى مكة لباشا المماليك الترك قانصوه المصارع بعزل سودون ، وتولية جندر محتسباً لمكة ، وحصل للناس خير كثير(٢٠٧).

---

(٢٠٣) ابن فهد، النجم عمر، إتحاف الورى، جـ٤، ص٢٣٥ ؛ الدر الكمين، ج١، ص ٥١٠، ج٢، ص ٨٣٠.

(٢٠٤) تشبه السرير، والدكك في المجتمع المملوكي من بين جهاز العرس لبنات الطبقة العليا، وهي لفظ عربي معناه المصطبة أو الصفة.

نجم، زين العابدين شمس الدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٢٤٢؛ دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٧٦ .

(٢٠٥) وظيفة اختصاصها قراءة الكتب الواردة على السلطان، وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، والجلوس بدار العدل لقراءة القصص (الطلبات، والاستدعاءات) والتوقيع عليها ومشاركة الوزير في بعض الأمور مع التحدث في أمور البريد، ومشاركة الدوادار في أكثر الأمور السلطانية .

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢٠٦) هي إما ينبع البحر بفتح الياء، وإسكان النون وضم الباء وآخره عين مهملة، وهي بلدة ذات إمارة من إمارات المدينة المنورة، ويضاف إلى البحر للتفريق بينها وبين ينبع النخل، **وينبع النخل** : منطقة ذات قرى سكانها جهينة وحرب، من إمارة المدينة المنورة.

الجاسر، حمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، القسم الثالث، الرياض، دار اليمامة، ١٣٩٨م، ص ١٥٥٨-١٥٥٩.

(٢٠٧) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٢، ص ١٠٧١، ١٠٨٣، غاية المرام، ج ٣، ص٨٤.

وفي العاشر من محرم سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م جاء الشريفان بركات وفايتباي إلى باش المماليك السلطانية ينهيانه عما يفعله بمكة، وأنه ضرب أربعة حتى ماتوا، وأن هذا الأمر لا يخفى على السلطان، وإن نحن نرسل نعرفه فأراد أن يجيبهما بجواب فحفظه القاضي الحنفي، فإنه استشاره برسالة ثم طلبه فأشار على ألا يخالف، فإن الكلام كثير، ومكة ما تحمل هذا، فما وسعه إلا الموافقة فأجاب بلطف، فأرسل مملوكاً من جهته يعتذر لهما، وفي الحقيقة أنه استباح الناس ضربًا، ونهبًا، وتخويفًا(٢٠٨).

وفي الثامن عشر من جمادى الأولى من سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م كثر تعسف الباش خاير بك في الحسبة على الناس فيما يأخذه فضجوا واستغاثوا بسبب ما كان يأخذه من أموال لنفسه ، فلما علم بذلك الشريف بركات بن محمد بن حسن عجلان أرسل لمكة منادياً ينادي " أن الدكاكين تغلق ولا يباع ولا يشترى بمكة ومن فعل شيئاً من ذلك يشنق على بابه أو لا يسأل ما يجرى عليه، فنودي. ثم نادى المنادي - مرة أخرى - "لا يجلب بمكة لا فاكهة ولا حطباً ولا شيئاً" وبعد توسط القاضي المالكي للباشا المحتسب عند الشريف بركات، أعيد فتح الدكاكين والبيع والشراء على حاله، ومن ظُلم عليه بالسيد بركات، وتم الاتفاق على أن كل من باع في غير السوق من تجار العنب والتمر يعطي المحتسب محلّقاً على الحمل الواحد، واتفقوا على ذلك(٢٠٩).

يتضح مما سبق مدى حرص واهتمام سلاطين المماليك على رعاية المجتمع المكي والمحافظة عليه، وكانوا يقومون بعزل الولاة المحتسبين الذين يظلمون الرعية، وينشئون المظالم، واستبدالهم بمن هم خير منهم، كذلك كان أشراف مكة يتدخلون في كثير من الأوقات رفقة بالرعية، إن كان هناك ظلم، أو وحشية، أو قسوة من المحتسبين تجاه الرعية، وكانوا يحرصون على نهي من فعل ذلك، وتهديده بإخبار السلطان المملوكي في مصر بما يحدث من تصرفات سيئة، وهذا يدل دلالة واضحة على أن

---

(٢٠٨) ابن فهد، العز عبدالعزيز، بلوغ القرى، جـ٣، ص ١٦٦٢.

(٢٠٩)ابن فهد، العز عبدالعزيز، غاية المرام، جـ٣، ص٢٣١-٢٣٣.

هؤلاء الأشراف كانوا عين السلطان الساهرة على تصرفات المحتسبين وغيرهم في مكة المكرمة.

الخاتمة

هكذا أظهر البحث كيف كان أجدادنا سباقين في وضع القواعد والأسس لحياتهم وطبقوها ، وأنهم بقواعدهم هذه طبقوا ما جاء في القرآن الكريم والأحاديث النبوية من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وحرمة الإنسان، وحرمة الإفساد في الأرض. كما أوضح البحث التعريف بالحسبة والمحتسب والصفات الواجب توفرها فيه، وكيفية تعيينه، وأن الحسبة في مفهومها السنة تعنى سلامة الحياة الإنسانية في شتي جوانبها، وآدابها، وأدوات المحتسب، وراتبه، وأعوانه، وسلطات محتسب مكة ودوره في خدمة بيئة مكة والحفاظ عليها من الملوثات.

كما أن محتسب مكة انفرد بأمور ليست عند أي محتسب آخر، مثل إحصاء المواليد والوفيات، ومحاربة البدع والخرافات، والسحر والسحرة، وتحريم شرب القهوة بعد تخميرها إن كانت مسكرة، والمحافظة على مياه زمزم من التلوث، واندماج محتسب مكة في المجتمع المدني، ومشاركته أفراحهم وأتراحهم، واحتفالاتهم الأسرية والدينية، والتطور الذي طرأ على الحسبة بتولي أمراء المماليك لها، وقيام محتسب مكة باستقبال كبار الشخصيات، ومصاحبتهم موسم العمرة والحج، ومحاربة التشيع .

والله أسأل أن أكون قد وفقت في إلقاء مزيد من الأضواء على وظيفة المحتسب في مكة المكرمة في ذلك العصر، وهو العصر المملوكي ، والله نعم الموفق والمعين .

قائمة المصادر والمراجع

[١] القرآن الكريم
[٢] ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت٧٢٩هـ / ١٣٢٩م)

معالم القربة في أحكام الحسبة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦م.

[٣] أمين ، هدى عبد الغفور

الحسبة في الإسلام في القرن ٦-١٠هـ/١٢-١٦م ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، القاهرة ، جامعة الأزهر ، كلية الدراسات الإنسانية.

[٤] ابن إياس ، "أبوالبركات محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م"

بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ٥ أجزاء ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م .

[٥] ابن بسام ، محمد بن أحمد (ت ٥٨٩هـ /١١٩٣م)

نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٦٩م ،

[٦] ابن بطوطة ، "أبوعبدالله محمد (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)"

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار أو رحلة ابن بطوطة، بيروت ، دار الكتب العلمية

[٧] البكري، أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)

معجم *ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع* ، تحقيق : جمال طلبة ، مج١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨م.

[٨] البلادي، عاتق بن غيث،

معجم *معالم الحجاز* ، مكة المكرمة ، دار مكة ،١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢هـ.

[٩] ابن تغرى بردي: "أبوالمحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)"

- *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، ١٦ جزء، ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- *منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور*، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، جزآن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٤١٠هـ /١٩٩٠م.

[١٠] ابن تيمية ، تقي الدين أحمد (ت ١٣٨/٧٢٨م)

الحسبة في الإسلام ،القاهرة ، منشورات محب الدين الخطيب ، ١٤٠٠هـ /١٩٧٩م

[١١] الجاسر ، حمد
المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، الرياض ، دار اليمامة ، ١٣٩٨م.

[١٢] ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)"
تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار أو رحلة ابن جبير ، بيروت ، نشر دار صادر ، ١٣٨٨هـ/١٩١٨م

[١٣] الجزيري، عبدالقادر بن محمد الأنصاري (ت ٩٧٦هـ /١٥٦٨م)
درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، بيروت ، دار صادر ، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م .

[١٤] حسنين ، أحمد طاهر
الحسبة في الإسلام ، القاهرة ،١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

[١٥] الخطيب ، مصطفى عبد الكريم
معجم *المصطلحات والألقاب التاريخية* ، بيروت ، دار صادر ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

[١٦] الدريويش ، أحمد بن يوسف بن أحمد "
أحكام السوق في الإسلام ، وأثرها في الاقتصاد الإسلامي ، الرياض ،دار عالم الكتب ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م

[١٧] دهمان ، محمد أحمد
معجم *الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي* ، بيروت، دار الفكر المعاصر ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

[١٨] الذهبي، أبو عبد الله محمد (ت٧٤٨هـ /١٣٤٧م)
تاريخ بلاد الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام التدمري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

[١٩] الزاملي ، فايز إبراهيم
الأوقاف في فلسطين في عهد المماليك (٦٤٨-٩٢٢هـ) رسالة ماجستير منشورة ، غزة ، الجامعة الإسلامية ، ٢٠١٠م.

[٢٠] الزبيدي " محمد مرتضى (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)
" *شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس* ، القاهرة ، بولاق ،دار الكتب العلمية ، ١٢٥٨هـ .
[٢١] الزمخشرى "جار الله أبو القاسم محمود (ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م)"
أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل السود، بيروت ، دار المعرفة ،١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
[٢٢] الزهراني ، ضيف الله بن يحيى وآخرون
تاريخ مكة التجاري ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة، الغرفة التجارية والصناعية ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م.
[٢٣] أبو زيد ، سهام مصطفى
الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
[٢٤] السبت ، خالد بن عثمان
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
[٢٥] السخاوي: "نجم الدبن محمد بن عبدالرحمن (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)"
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار الحياة، د.ت .
[٢٦] السقطي : محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٨٥٤هـ /١٤٥٠م)
آداب الحسبة ، القاهرة ، ١٤٨٠م.
[٢٧] السلمي، محمد معاضة
الأسرة الظهيرية في مكة في العصر المملوكي ٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠م-١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، جدة ، جامعة الملك عبد العزيز ، ٢٠٠٩م
[٢٨] سليم ، محمود رزق
موسوعة مصر عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، (د٠ت) .
[٢٩] السمهودي "نور الدين على بن أحمد (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)"
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م
.

[٣٠] السنامي ، عمر بن محمد (ت٧٣٤هـ /١٣٣٣م)
كتاب نصاب الاحتساب ، تحقيق مؤئل يوسف عز الدين ، القاهرة ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م.
[٣١] ابن سيده "أبو الحسن على بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م)"
المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، القاهرة ، بولاق ،دار الكتب العلمية ، ١٣٢١هـ.
[٣٢] ابن شبة ، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري(ت٢٦٢هـ / ٨٧٥ م)
تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق : فهيم محمد شتلوت ، مكة المكرمة، نشر السيد الحبيب محمود، ١٩٧٩.
[٣٣] شماع ، محمد عمر
القضاء والقضاة في الحجاز في العصر المملوكي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جدة ، جامعة الملك عبد العزيز ، قسم التاريخ ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م
[٣٤] الشهاوي ، إبراهيم دسوقى
الحسبة في الإسلام ، القاهرة ،١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
[٣٥] ابن الصيرفي : الخطيب الجوهري علي بن داود (ت٩٠٠/١٤٩٤م)
نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق حسين حبشي ، القاهرة ، دار الكتب العربية ،١٣٩١هـ / ١٩٧١م .
[٣٦] العابد، أحمد وآخرون
المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية ومتعلميها ، لاروس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٨٨م.
[٣٧] عاصم ، محمد
معجم *مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية* ، مصر ، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠م
[٣٨] عاشور، سعيد عبد الفتاح
العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ط٢ ، ١٩٧٦م

[٣٩] العبدري ، ابن الحاج
المدخل ، مدخل إلى الشرع الشريف ، القاهرة ، مكتبة دار التراث ، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م .
[٤٠] عبدالمجيد ، ليلى أمين
التنظيمات الإدارية والمالية في مكة المكرمة في العصر المملوكي٦٦٧-٩٢٣هـ /١٢٦٨م-١٥١٧م، مكة المكرمة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م
[٤١] ابن عبدون
ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، القاهرة نشر ليفي بروفسال ، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية.
[٤٢] العريني ، السيد الباز "
"الحسبة والمحتسبون في مصر" ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ٣ لسنة ١٩٥٠م.
[٤٣] علي السيد علي
التراجمة في عصر سلاطين المماليك" ، مجلة تصدرها اللجنة الوطنية القطرية للتربية والعلوم، العدد ١٠٣ ، سبتمبر ١٩٩٢م
[٤٤] الغامدي ، بدرية أحمد
الأسرة الطبرية قي مكة المكرمة في العهد المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جدة ، جامعة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
[٤٥] الغزالي " أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م)"
إحياء علوم الدين ، القاهرة، مطبعة الحلبي ، ١٣٥٨هـ .
[٤٦] الفاسي ، "تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م)"
- *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق محمد عبدالقارد أحمد عطا، الطبعة الأولى بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام* ، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري ، جزآن ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م.

[٤٧] الفاسي ، عبدالرحمن
خطة الحسبة في النظر والتطبيق ، الدار البيضاء ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

[٤٨] ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ /١٤٠٤م)
تاريخ الدول والملوك ، تحقيق قسطنين زريق، ج٩، بيروت ، الجامعة الأمريكية ، ١٩٣٦م

[٤٩] الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد(ت ١٧٠هـ / ٧٨٦م)
كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، بغداد ، دار الرشيد ، طبعة دار الحرية ، ١٩٨٤م.

[٥٠] ابن فهد جار الله بن عبد العزيز (ت٩٥٤هـ / ١٤٥٧م)
القول المؤتلف في نسبة الخمسة البيوت إلى الشرف ، (د.ن) ، محفوظ رقم ٢٥٧٩، مكة المكرمة ، مكتبة الحرم ، ورقة ٢٠

[٥١] ابن فهد : "النجم عمر ت ٨٨٥هـ/١٤١٨م"
- *إتحاف الورى بأخبار أم القرى*، الأجزاء ١ و ٢ و٣ ، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الطبعة الثالثة، مكة المكرمة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى،١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ؛ ج٤، تحقيق عبدالكريم علي باز، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م
- *الدر الكمين لذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين* ، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش ، الطبعة الثانية ، مكة المكرمة ، مكتبة الأسدي ، ١٤٢٥هـ

[٥٢] ابن فهد : العز عبدالعزيز بن النجم "ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م"
- *بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى* ، تحقيق صلاح الدين بن خليل إبراهيم ، وعبدالرحمن بن حسين أبوالخيور ، وعليان بن عبدالعاليالمحلبدي ، ٤ أجزاء ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م

- *غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام*، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ٣ أجزاء ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ / ١٩١٨م

[٥٣] القرضاوي ، يوسف
رعاية البيئة في شريعة الإسلام ، القاهرة ، دار الشروق ، سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م

[٥٤] القلقشندي : أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء ، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد، ١٣٣١هـ / ١٩٣١م.

[٥٥] ابن كثير "عماد الدين أبو الفدا إسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) "
البداية والنهاية في التاريخ ، طبع مطبعة ، القاهرة ، دار السعادة ، ١٩٣٩م .

[٥٦] الماوردي : "الإمام على بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ /١٠٥٧م)"
الرتبة في طلب الحسبة ، القاهرة، دار الرسالة ، ٢٠٠٢م

[٥٧] المجيلدي : أحمد بن معيد (ت١٠٩٤هـ/١٦٨٢م)
كتاب التيسير في أحكام التسعير ، الجزائر ، ١٩٧٠م

[٥٨] المراغي ، أحمد مصطفى
الحسبة في الإسلام ، القاهرة ، (د٠ت)

[٥٩] مصيلحي ، سامية
الحياة الاقتصادية في الفسطاط في عهد الفاطميين ، رسالة ماجستير غير منشورة القاهرة ، جامعة الأزهر ، ١٩٨٨م

[٦٠] المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر(ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)
- *إغاثة الأمة بكشف الغمة* ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ،١٣٥٣هـ/ ١٩٤٠م
- *السلوك لمعرفة دول الملوك*، الأجزاء ١ و ٢ ، تحقيق محمد مصطفي زيادة ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ،

١٣١٨هـ/١٩٥٨م،ج ٣ و ٤ ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ، دار الكتب ، ١٣٩٤هـ /١٩٧٣م ، ج٣/٤

- *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*، طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٧٠م

[٦١] منصور ، أحمد صبحي
الحسبة دراسة أصولية تاريخية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥م .

[٦٢] ابن منظور "جمال الدين محمد بن مكرم" (ت ٧١١هـ /١٣١١م)
قاموس لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م

[٦٣] نجم ، زين العابدين شمس الدين
معجم *الألفاظ والمصطلحات التاريخية* ، القاهرة ،دار الكتاب الحديث ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

[٦٤] هادية علي و آخرون
القاموس الجديد ، تونس ، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م

[٦٥] ياقوت الحموي، شهاب الدين عبدالله (ت ٦٢٦هـ /١٢٢٨م)
معجم *البلدان* ، بيروت ، دار صادر، ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م .

Al Hissba Practice in Makkah during the Memlouk Sultans Era

Dr. Mohammed Salim Baamir
College / Affiliation: Faculty of Arts and Humanities
Department: History Division

Abstract. The practice of enjoining what is right and forbidding what is wrong AKA "Hissba" has had its origin in Islamic teachings. Its core activity was the promotion of virtue and the prevention of vice. Its principles were drawn from the sources of Islamic jurisdiction and literature including the Holy Quran, the prophets sayings, the writings of Sharia jurists and subsequently modern intellectuals.

Muslims have always been keen on inspiration of Sharai and Islamic faith spirit when adopting regulations on administrative and daily life issues. The most prominent Islamic principles are based on administration of justice as stipulated in authentic literature.

This study aims at shedding direct light on Hissba which was considered an aspect of great importance in the Makkan history. It covers the most prosperous of the Arabian historic periods namely the Memlouks Sultans era.

The study methodology comprises the definition of Hissaba commissioner, his appointment criteria, assistants officials, Hissba boards which used to hold meeting in neighborhoods terraces. It also elaborates on Hissba executive powers and major duties such as daily paper processing, census, assisting the poor, care for water resources, maintenance of roads. cleanliness, fighting the spread of Shia, fighting societal illness, maintaining the sanctity of Holy Kabba, penetrating the social fabric for positive action, ensure punishment deviant Hissba agents.

The study includes footnotes, and other relevant annotations besides this abstract in English.